ستمطر الروديثا أملا

عنوان الكتاب: ستمطر الرودينا أملا

الكاتبة: مهيرة باشا

الناشر: ماروشكا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٢٣ م

ردمك: ٦-٦١-٢٦٣-٩٩٣١-٩٧٨

المدير العام: بن وارث أمال

لمراسلة الدار:

إيمايل: **marouchka.edition@gmail.com**

هاتف: **+٢١٣٦٩٧٧١٧٠٥٠**

العنوان: تحصيص تاقوفت توسيع رقم ١٧ - أم البواقي - الجزائر

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن منه.

ماروشكا

للنشر والتوزيع

ستمطر الروديثا أملا

مجموعة قصصية

مهيرة باشا

الإهداء

الحمد الله الذي تتم بنعمته الصالحات، الحمد لله الذي وفقني لزرع الابتسامة على وجه والديّ الكريمين وإخوتي وأخواتي.

أهدي كتابي هذا إلى من كلله الله بالهيبة والوقار، إلى من وعدته ذات يوم بهذا اليوم، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار، إلى أبي. وإلى منبع الأمن والأمان، إلى ينبوع الحنان ومصدر قوتي، إلى من ضحت من أجلنا، أمي حبيبتي.

إلى جمهوري الأول ورفيقة دربي وتوأم روحي أختي صديقتي.

إلى من أتمنى أن أكون قدوته ويسير على خُطَايا ابن أختي بيازيد، وإلى سندي ومسندي وظهري بعد أبي إخوتي كل باسمه و علو مقامه.

إلى قدوتي وأستاذي الذي كان يقمني بعد كل العثرات، إلى من تعجز الكلمات

على أن توفيه حقه إلى الكاتب رابح كريم، وأستاذتي الفاضلة فطيمة

بكاي جزاها الله الجنة ونعيمها الذي لا يزول ولا يحول.

أبي.. أمي.. إخوتي.. أنا اليوم أطرق باب عالم الكتابة، أنا اليوم وفيت بوعدي لكم، أنا اليوم

كاتبة واعدة وسأواصل طريقي رغم كيد الحاقدين .

مقدمة

ستمطر الرودينا وستزهر...

ستزهر بعد كربتك ربيعًا، ستزهر صحراء قلبك وردا منثورا، ليصاحبك السند رفيقا، سيكون بجانبك في كل هذا الغرق كجذعِ شجرة يصلح للنجاة، ابتسم ولا تظلم ملامحك البهية بالعبوس، ستزهرَ وكأنك لم تذق بالأمس مرًا، ستشرق شمس طموحاتك وإن عانيت حد الانكسار، رغم كل الشتات من حولك، ستأتي أيام تراضيك ولن يدوم ما بك للأبد، أنت جميل لترى الوجود جميلا، ابتسامتك صنع نفسك، وتفاؤلك حبل نجاتك من شتاء الحياة وقسوة الأرواح، ليزهر ربيع أيامك ياسمينا شاميا بعبق سوري، ستمطر الرودينا أملا فلا تذبل أيها الزهر.

لحظات من الماضي

نعيش وسط فقر شديد أنا وإخوتي شيماء وأسمر وأمي، أمي التي تموت بموتنا وتمرض لمرضنا، تتألم لألمنا، فرغم الظروف القاسية كانت تشعرنا أننا نمتلك سعادة كبيرة وعلمتنا أن القناعة كنز لا يفنى، وأن الأخلاق أقوى من أن تنزوي بين صفحات الدهر.

في يوم ضرير اشتد المطر على كوخنا الهش، تسللت قطرات الماء إلى كل أنحاء الكوخ..

أسمر: الأمر لا يبشر بالخير إن السقف يكاد ينهار والأمطار تتساقط بغزارة، ماذا نفعل يا أماه؟

قالت بنبرة من الحزن مختلطة بنوع من الخوف: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

هرعت أختي الصغرى للبكاء كعادتها، إنها لا تجيد شيئا غير البكاء والنحيب وعلى أتفه الأسباب، بعد ساعات توقف المطر أخيرا في وقت متأخر من الليل، الحمدالله لم يحصل شيء رغم تلك التقلبات الجوية المرعبة وكذا الهزات الأرضية المتقطعة.

أشرق الصباح بنوره وحل النشاط فينا، خرجنا مسرعين إلى المدرسة، وبينما كنا بين الصفوف في الرواق المدرسي، شعرنا بهزة أرضية قوية أثارت الهلع بين صفوف التلاميذ، كادت المدرسة تتهاوى فوق رؤوسنا وكدنا نموت فيها، أما أنا فتفكيري لم يغادر كوخنا الصغير ومن فيه.

بعد حوالي ربع ساعة هدأ الوضع وعمّ هدوء نسبي، أسرع كل منا إلى منزله، لم يسمح لنا الوقت بالاستئذان للخروج من المدرسة أو

حتى التفكير في البقاء فيها أزيد من ذلك، في طريقي وجدت الكثير من الأشخاص ينحبون عن حظهم السيء لقد تحطمت منازلهم الهشة، صعقت أنا الأخيرة عندما رأيت كوخنا الصغير الذي رفرفت فيه أحلامي عاليا والمأوى الذي كان يقينا حر الصيف وبرد الشتاء قد أصبح ركامًا، بسرعة غير منتظرة مسحت دموعي وحمدت الله لأن أمي وأختي لم يصبهما أي مكروه .

بكى أسمر بكاءً شديدا وحزن حزنًا لا يعادله حزن، أخذت أمي تلعب بخصلات شعره وتداعب رأسه لتهدئ من روعه، وقالت له: سيرزقنا الله وما هذا إلا ابتلاء منه، الصبر يا أطفالي لما كتبه رب العرش العظيم، فسبحانه هو من قال «من يتق الله يجعل له مخرجًا».

خلقت الهزة الأرضية أضرارا جسيمة، وجب علينا حمل رحالنا والمغادرة إلى المجهول، تبًا عن أي رحال أتحدث؟ لم نعد نمتلك شيئا... تدمر كل شيء.

بعد السير المتواصل في الغابة وجدنا أحد المزارعين تبدو عليه الطيبة والكرم، بعد حديث قام بينه وبين أمي علم بظروفنا وحالنا، استضافنا في بيته أحسن استضافة وأحضر لنا المأكل والمشرب، كان منزله يبعث على الطمأنينة والراحة، وزوجته الطيبة التي رحبت بنا ترحيبا حارًا لم تنم هي وأمي إلا عند بزوغ الفجر، تحدثتا طوال الليل عن الحياة والظروف القاسية وما تخلفه بنا من أضرار وكذا قدرة الله سبحانه وتعالى على تغيير ما رسمه القدر في لحظات معدودة.

في الصباح اتفق المزارع مع أمي أن نبقى في منزل مجاور لمنزله وأن نساعده في العمل في مزرعته الواسعة التي تحمل أطناننا من الخضر والفواكه، مزرعة مليئة بانتعاش الحياة يتوسطها بئر عميق ينبع منه

ماء صافي، وعشب أخضر تتخلله سدود الماء العذب وتصنع مسارات عدة، هدوء جميل لا تسمع إلا خرير المياه وزقزقة العصافير، الأزهار سعيدة ومتناثرة هنا وهناك تهلل بحلول فصل الربيع الذي يجعل منها عرائس شديدة الجمال، أزهار تسر الناظرين وتقبع في قلب كل من يراها.

بعد سنوات عدة أصبح أخي من أعيان البلاد وابتسم له الحظ وشاء القدر أن يكون سفير البلاد فلم يعد إلى البيت منذ أن غادره بعد آخر عقد، أما شيماء فقد أصبحت فتاة ناضجة تعمل بكل إصرار على الرفع من مستواها العلمي وهي أحد أشهر الدكاترة في البلاد، وأنا أستاذة للأدب العربي.

خرجنا من بيتنا الدافئ فردًا فردًا، ثم ماذا ؟ثم لم نعد إليه منذ أن خرجنا منه، بقيت نبع الحنان تنتظر عودتنا دون ملل، تنظر إلى ذلك الطريق الذي غادرنا منه عسانا نعود يومًا، تتوجه بأصابع الاتهام إلى المدينة التي سرقتنا منها، وتركتها وحيدة والذكريات تأكل قلبها بالسكين والشوكة غير مبالية بالآهات النابعة من ذاتها.

عندما بلغنا خبر وفاتها لم يصدق أحد منا أن القدر قد خطف منا تلك الأنثى التي تقف وراءنا مثل الأسد، وتخشى علينا من وخزة شوكة، تركت الكثير من الندوب في حياتنا، اجتمع خبر وفاتها كالزجاج المطحون في قلبي وجمد فؤادي، أبعدتنا عنها المسافات الطويلة لكن لم نغادر قلبها يوما .

رحل الصدر الحنون والقلب الطيب، رحلت القوة والكبرياء، من كان يفضل أن يدوس الجمر على أن نذل أو نهان قد رحل ودون عودة، امرأة دفعت حياتها ثمنًا لترى سعادة أبنائها، وعند لفظها آخر أنفسها

لم يتكبدوا عناء الوقوف بجانبها وتوديعها إلى مثواها الأخير، تنقطع الكثير من الحبال وتجد أن حبل سعادتك مرتبط بشخص ما وانقطع بغيابه.

هناك أمل

جو مشمس ويوم جميل كالعادة، خرج الأب لعمله وقد كان رجلا شديد الواقعية والحيطة، علّمه سوط الحياة كيف يجب أن يحني ظهره لضربات القدر المتتالية لكي لا ينكسر، كيف يحترس من كل شيء بعد أن خسر ابنه البكر برصاصة طائشة، أصبح أكثر حرصا من ذي قبل، كانت أحلامه بالانتقام لابنه تراوده ولا تغادر تفكيره، فأخذ يتلوها آناء الليل وأطراف النهار دون توقف، بينما كان يقطع الشارع توقف عن تدوين أحلامه النادرة من حروف ذاته المشبعة العميقة.

بعد يوم شاق من العمل عاد لمنزله أو ما يسميه المقبرة المظلمة لأنه قد شهد فيها مآسي، مظالم ومجازر عند دخوله، نظر نظرة هلع يائسة إلى زوجته وقد أطاح بها مارد الشيخوخة والمرض، ومايزال هو قابع في غيبوبته، يبدو أن زلزالا هدّ أركان كيانه بل وزعزع واقعيته أيضا، ارتدّ إلى مسامعه صوت عذب يقطع سكون الهدوء، فإذا بها ابنته تتلو القرآن بصوت يكاد يبعث الأرواح من جثمانها ويحي الأموات، يستفيق الغافل من غفلته فتبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين، اسودت الجدران من فرط الإهمال وبدت عليها مرارة الأجيال، خلد إلى نوم عميق وخيم على ذاته سكون مريب، حلم أحلاما تتحدى الواقع وقوانينه.

أشرقت الشمس معلنة عن يوم جديد، نهض الأب من مكانه وخرج لعمله رغم الضيق الذي يشعر به والوخزات المستمرة التي تؤلمه ألما شديدا في قلبه، نظر ذات اليمين وذات الشمال ثم قطع الطريق، التقى بصاحبه الذي أرهقته الحياة فأخذ يثرثر دون هوادة، سخر منه وقال في داخله: بين الجنون والحكمة ذرة .

سرعان ما تحولت سعادته إلى كتلة من الحزن فوضعت سحابة اليأس رحالها فوق رأسه فردد قائلا: متى توافيني المنية يا صديقي؟ فإن الأرض قد ضاقت بي.

وقف في وجهه كالبرزخ وقال: بمَ تهذي يارجل؟ ماذا تقول؟ إن الله هو الذي يبث الأرواح وهو الذي يأخذها، لك أجل محدد وستغادر روحك العالم بسلام إلى عالم آخر قد يكون أشد راحة من هنا، ستصلح الأحوال بإذن الله يا رفيقي هناك أمل فلا تيأس...

- لا أظن هذا لأنني أغلقت صندوق الأمل وقتلت كل الأحلام منذ دهرٍ بعيد.

ودّع الصديقان بعضهما البعض وخيّم هدوء نسبي، أمل في اللقاء مرة أخرى، وها هي الشمس تأذن بالمغيب..

بعد العديد من السنوات قرر الأب أن يغادر هاته المدينة التي سلبته السعادة، انطلق في سيارة أجرة رفقة ابنته وزوجته مخلفًا وراءه البنايات وكلما ابتعد عنها هزّ الخوف أوتار كيانه، ذهب إلى مسقط رأسه وأرضه الأولى حيث سكن أعمامه وأجداده، امتلك بيتا هناك وعند وصوله وبعد حملة تنظيف شاقة كالعادة والمعتاد خرج يبحث عن عمل يكسب منه قوت يومه، لكن القدر لم يشأ.

عند تجواله وجد شيخا يبدو عليه التعب والإرهاق فبادره التحية، وبعد حديث متواصل ردد الشيخ بحسرة كبيرة: إنه زمن الإلهام والمغادرة.. زمن الموت والرحيل .

أقبلت الليلة السابعة من شهر أبريل، ليلة شديدة البرودة، اتبع ببصره ألسنة النار وقد أخذت تتموج راسمة بطلالها أشكال شتى في الحائط المهترئ، انتفض من مكانه وأسرع إلى ابنته التي كانت تطلق صرخات

متواصلة كما لو أن اللعنة قد وقعت عليها... صعق برؤية زوجته تلفظ أنفاسها الأخيرة، وماهي إلى لحظات وغادرت روحها الأرض نحو السماء الزرقاء التي أبدت هي الحزن تلك الليلة وقد أمطرت بشدة وشاركتهم مصابهم الجلل... حزن حزنًا شديدًا واعتكف الصمت لشهور، ساد المنزل الصمت ومن يراه من بعيد يرجح أن هناك أشباحا ضارية تسكنه.

كان عندما يعود إلى المنزل يسمع حديث زوجته وابنته التي كانت الثرثرة تمثل عزاءهما الوحيد ومتنفسهما الدائم لكن الآن الذكريات أصبحت سيدة كل المواقف دون استثناء. كانت الوحدة تنهش جسده وكبده على مرآى من الأقرباء والأصدقاء.

كانوا في نظره مثل الحمقى الذين يتزينون بأزياء الحياة المملة التي لا تجذبه ولا تروق له، رغم ما مر به إلا أنه ظل شامخا مثل الجبل لا تهزه رياح، بعد وفاة رفيقة عمره عزم على أن يغير ما رسمه القدر، واستبشر في الصباح الباكر بألوان ضاحكة فتغير وجه السماء واكفهر بالسحب القاتمة، ومع هذا أصر على الذهاب لعمله متحديا الطبيعة وظروفها، الجو وتقلباته، عمل حتى أصبح الليل كتلة جامدة، تأمل جروحه العميقة، تذكر أن قطار الحياة سار به على سكة الحياة إلى آخر العمر، فجعل من ابنته ووحيدته أجمل عروس في القرية وعزم على أن يجهزها أحسن جهاز، وفعلاً حصل ماخطط له.

كانت ابنته في ريعان الشباب وفي ربيع العمر زفها عروسا وودعها بحرارة، مع مرور الوقت أصبح له أحفاد رغم اندثار العائلة لكن ثقته بالله وإيمانه جعلا منه أقوى مما كان عليه واهتدى في ظلمته إلى راحة عظيمة لا توزايها راحة، لم يستسلم يومًا رغم تقدمه في السن ولم يغيره

الزمان وقد كان حريصًا على سعادة ابنته، مضى في حياته وقد حرق أوراق الماضي بنار الأمل، ترك كل شيء بيد الله فعند الله تلتقي الخصوم ويأخذ كل ذي حق حقه والله لاينسى عبده، من أحيا العظام وهي رميم ومن شق البحر نصفين فإنه على كل شيء قدير.

عاش وسط مزرعته البسيطة، أمضى آخر أيام عمره بين زهور الأقحوان والياسمين، صمد وصبر أمام أعاصير الحياة العاتية وتوكل على خالقه وقد بدت على وجهه قسمات الأمل والتحدي ورسم على محياه لوحات البطولة والكرامة.

فقدت بصري

غاب عن الحياة، نسي كل شيء من حوله... نسي حتى نفسه، انفجرت شرايين الكرة الأرضية وارتدت عمامة بيضاء ناصعة، أخذ يسير في دروب الحياة السوداء والعرق يغسل جسمه وهو برفقة شقيقه الكفيف، وفي ذاكرته أمه التي فارقته على حين غفلة، وقف كتمثال متآكل حزين، كادت الدموع أن تنفلت من بين رموشه وأشفاره، طأطأ رأسه وواصل السير... وظل يسأل نفسه إلى أين؟ بصوت عالٍ، لكنه لم يجد أجوبةً مقنعةً لأسئلته المتواصلة وأفكاره المبعثرة، لقد فارقت الابتسامة وجهه وامتقع لونه كأنه يتجرع سماً ناقعاً. عصفت زوبعة قوية فضم شقيقه الكفيف بين أحضانه.

في صباح اليوم التالي وصلا إلى بيت العم الأكبر لهما بعد حديث مستمر بين العم وابن أخيه في سبيل وجود حل لكي ينير بصيرة أخيه الصغير الذي سلبت براءته ولم ير من الحياة شيئاً .

القدر هو السيد ونحن هياكل يحركها كما يشاء... ضم أحمد سامي إلى صدره كأنما يخشى من القدر أن ينتزعه منه أيضا، أصبح سامي يشكو ألما مبرحا في عينيه فصار كزهرة نرجس ذابلة داستها الأقدام دون رحمة .

توجه أحمد بأخيه إلى الطبيب للمرة الألف ولم يحصد سوى خيبة الأمل وقد أكد له أنه لن يشفى ولن يبصر بعد اليوم. انهمرت الدموع من عينيه نابعة من قلبه، وأخذ يضرب أخماسًا بأسداس وحزن على مصابه الجلل، ارتشف فنجانا من القهوة السوداء كسواد أيامه، دخل عمه ذو القامة الطويلة والنظرات الحادة بسرعة لينادي زوجته التي

أصبحت عجوزا خرفة، فرد التحية على ابن أخيه أحمد الذي بادره التحية بكل حب وعطاء.

لمّا سمع سامي صوت أخيه وقف من مكانه وارتسمت على وجنتيه ابتسامة عريضة، اتبع مصدر الصوت ليهتدي إليه، تعثر أكثر من مرة لكنه واصل سيره حتى كاد أن يسقط فوق النار التي أوقدتها زوجة عمه لتحضر بعضاً من الشاي الأخضر، أسرع إليه أحمد وضمه إليه فأحس الطفل بالدفء والحنان.

لوهلةٍ تحسس الدموع في وجه أخيه، فأخذ هو الآخر يبكي بحرقة ثم قال: أعلم أنني لن أرى النور ثانيةً، لا داعي للحزن فلا اعتراض على مشيئة الله، هذا قدري وما نعيشه الآن مجرد ذكريات تصب في بحور النسيان وتترسب في أعماقها ولن نقوى على تذكرها، وكذلك نحن ذكريات عابرة، أنا راضٍ كل الرضا لأنني فقدت بصري ولم أفقد بصيرتي، فكم من ناس يرونً بالبصر ولا يرون بالبصيرة، في بعض الأحيان يكون العمى عمى القلب وليس عمى العيون، لن يحدث شيء دون إذن خالقنا.

هذا الصغير الكفيف ذو الوجه الساطع كالقمر والشعر الأسود كالليل صار من أوائل جامعته، وبعد عملية جراحية كسر كل قوانين البشرية واستعاد بصره ونظر إلى كل من سخر منه نظرات تحمل ألف معنى ومعنى، ثم رفع رأسه إلى السماء وابتسم كوردة رصعتها جواهر الندى.

لم تكن النهاية

بينما كنت غارقا في تفكيري وأنا أصطاد قطعة اللحم من بحيرة الزيت الساخنة، لم يكن ذلك صعبًا نوعًا ما، أحسست بجوع يتغلغل في أعماقي، أخذت ألتهم شرائح اللحم بشراهة لأن الجهد أخذ مني منفذا. شعرت بحاجة جسمي إلى أخذ قسطٍ من الراحة ولوهلة استرقت أذني صوت الكمان، إنها أمي تعزف ألحانًا ينشرح لها الصدر، ألحان جميلة وعذبة تداعب مسامع المصغي فتضيف لها أمي لمستها السحرية الممزوجة ببعض الحب والدفء فتجعلك تحلق عاليًا وسط الغيوم والعصافير الملونة.

انقطعت حلقة الأحلام الوردية حين هم والدي بالصراخ، إنه عصبي لدرجة لا توصف، يعود في منتصف الليل وهو فاقد لوعيه لأنه ثمل دائما، نزاعاته مع أمي لا تنتهي، يضربها ضربًا مبرحا ولا يكتفي بهذا بل يكسر كل الآواني في المنزل ويتهم أمي بأنها السبب في تعاسته وما حل به، دمّر كل أحلامي فلم أعش مثل أطفال الحي الذين في عمري، كان شغفي الوحيد هو الكتابة والقراءة في كل مرة أحمل ورقة بيضاء وأسطر أحداثها كيفما أشاء وأرسم فيها مقتطفات من خيالي اللا متناهي، أضمد جراحي بنفسي.

ذات يوم شعرت بحزن شديد جدا كما لو أن أحدهم طعنني بسكين حاد طعنات متتالية، يوم حمل فيه أبي دفتر مذكراتي الذي دونت فيه أجمل أحلامي وكان أنيسي الوحيد فمزقه ثم أشعل سيجارة من سجائره القذرة وأحرقه، شعرت أن ألسنة اللهب تلك تحرق قلبي مع الدفتر، ذرفت سيولا من الدمع، مرت سنوات على هاته الحادثة لكنها لم تفارق ذاكرتي للحظة ولم يقوَ الدهر على إزالتها أو إزالة مارسمه القدر.

حملتني أرجوحة الحياة بعيدا إلى عالم آخر، مضت الأيام بسرعة وكان طيف أمي يداعبني في الأحلام ويمسح على رأسي، لم أرها منذ زمن، هل لازالت تبكي لفراقي؟ أم أنني أصبحت هامشا بالنسبة لها ليس إلا؟ لم أرغب يوما في المغادرة لكن الأقدار فعلت فعلتها .

في الصباح الباكر اتجهت إلى مكتبي وفي طريقي كنت أفكر في الأكوام الورقية التي تنتظرني، أخذت أعطي لنفسي مبررات لأتهرب من العمل فلم أفلح وقادتني قدميّ إلى المكتب. مكتب مربع الشكل متوسط الحجم تقابله رفوف عملاقة لكتب قيمة وأنا أفضل أن أسميها كنوز المعرفة لما تحمل من علوم وثقافات، لاتزال هوايتي القديمة كما هي ولم يتغير فيها شيء، كتبت في دفتر ملاحظاتي بعض الأفكار العابرة التي أخشى عليها الهجرة دون سابق إنذار...

«الحياة قصيرة.. أقصر من أن تتوقع من الإنسان أن يغير من نفسه وتفكيره ومعتقداته للأفضل، عندما أنظر إلى السماء تملأها النجوم فإذا اختفت نجمة أو اثنتين أو ثلاثة.. هل ستحس بالفرق أو الاختلاف؟ لا طبعًا لأن عدد النجوم كبير جدًا، وكذلك عالمنا والحياة الواقعية.

نحن في رحلات مستمرة والأشخاص الذين نعرفهم وقد صنعوا لنا أرشيفًا من الذكريات وفاح عبيرها في الأرجاء قد رحلوا وأغلبهم إلى الأبد ودون عودة لهذا لا تهتم لمن يرحل أو يأتي، ابتسم دائمًا للقادم والراحل إنها سنة الحياة، عقارب السرعة تتحرك بسرعة فائقة، لا أقارن نفسي بأحد لأن أوجه المقارنة ليس لها نهاية، إضافةً إلى أنه لا يوجد أحد يشبهني أو يشبه روحي وشخصيتي والكثير من الصفات التي تمثلني، فأنا على طبيعتي أفضل، لابد من العثرات في الحياة لكنني أستطيع التغلب عليها ما دمت أقوى منها، أفكر وأخطط ثم أنفذ إن لم يخالفني

النجاح خلال رحلتي لن أستسلم وسأجعل من فشلي تمهيدات لنجاح عظيم لأنني لا أجيد التصنع والتباس الأدوار ولا أعير اهتماما للمكان الذي تجرفني إليه التيارات، بل أسعى دائما لأمتطي فرسي وأتوجه نحو مستقبل أفضل»

بعد يوم شاق من العمل وجدت ظرفًا، إنها رسالة ترددت في فتحها لكن انتهى بي المطاف لفتحها، إنها رسالة من أمي تدعوني فيها لأحضر زفاف أخي الأكبر، سعدت لأنها بخير وسعدت لدعوتها أيضا. جلبت حقيبتي الرمادية التي ذبل لونها وتبدد لمعانها لمرافقتها لي في كل الرحلات التي قمت بها وبعد استقراري هنا وضعتها فوق خزانتي على أمل رحلة جديدة لمكان مجهول، جمعت بعض الأغراض واكتفيت بالتي أحتاجها فقط، ثم توجهت صباح اليوم الموالي إلى محطة الحافلات ولم يتبقّ لي سوى الانتظار لإقلاع الحافلة، واكتظ عقلي بالذكريات التي عشتها هنا وموانىء الحزن التي عبرتها طول حياتي تسقيني اليوم أملا جديدا، وشعرت بشعور جامح يجتاحني بأنني لن أعود... لكنني على يقين أن جفاف الاهتمام سيوقعني في دوامة الافتراضات من جديد لأنني منزوٍ لوحدي ظنًا مني أنني مرتاح لكن كنت أشعر بسعادة مزيفة، فأسرعت رياح الحنين والاشتياق تحتويني وانتظرت ذلك الوميض الذي يعلن لي صافرة الانطلاق .

إحدى محطات الحياة

تضعنا الحياة أحيانا في أماكن ليست لنا، وتصفعنا بأيادي المقربين منا دون مبالاة بما سيحصل، لكن قدرة الله تسع كل شيء وهو على كل شيء قدير .

رحمة طالبة في الثانوية شقراء الشعر، ذات عينين لامعتين كلمعان اللؤلؤ، ووجنتين ورديتين، ترى الأمل يشرق بإشراقة ابتسامتها .

أحب الحياة بكل مافيها من لذة وألم، من صحة ومرض، من مجهول ومعلوم، من بداية ونهاية لأنّني أحب حقيقتي، أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها.

ما أقسى السكوت وما أجمل أصوات الناس ولو كانت ضجيجا، ما أدفأ النفوس ولوكانت منهكة، ما أقبح السكون وما أجمل الحروب ولو كانت معاركا، ما أقسى الفراغ وما أحلى الانشغال حتى بخيبات الأمل ...

استيقظت مسرعة على صوت المنبه وقد اخترقت نغماته طبول أذني لتعلن عن بزوغ الفجر، نهضت بتثاقل شديد وانحنيت على مكتبي لوضع اللمسات الأخيرة لتلخيص أحد المقالات التي التهمت الكثير من وقتي، اِزداد انشغالي هاته الفترة فالاختبارات على الأبواب وحلمي يتطلع إليّ من الأفق البعيد وتراودني مئات الأسئلة.. هل سأصبح حقا ما تمنيت؟ هل سأنال مرادي؟ أخذت دفتر مذكراتي ودونت بعض الأفكار المبعثرة التي هاجمت عقلي وبددت سلاسل الاسترخاء الذي كنت أشعر به.

لقد ضاعت طفولتي في التفكير في صولجان الحياة وسطرت أحلامي

بحروف من ذهب، وها هو العلم يلتهم شبابي وأنا أسعى وراء نيل المراد.

قاطعت أمي تفكيري بقولها: أتريدين فنجانا من القهوة؟

– قهوة!نعم بالطبع .

أنا والقهوة خليطان متجانسان، تشعرني براحة كبيرة، وتجعلني أحلق في فضاء الأحلام دون أن أشعر بسرعة عقارب الساعة، التي شعرت في الآونة الأخيرة أنها بدت منهكة على غير العادة.

بعد سلسلة من التفكير دامت لأيام انتهيت من الامتحانات وانقضى العام الدراسي بسرعة فائقة، خرجت من البيت وقصدت الثانوية ..وكما توقعت تصدر اسمي قائمة الناجحين، ليس غرورًا بل ثقة بالنفس، ثم رددت بكل كبرياء: من سار على الدرب الصحيح سيصل ولو بعد حين.

في طريق عودتي استعرت بعض الكتب من المكتبة العمومية، وسرني لقاء صديق قديم من هواة القراءة، أحسست أن قلبي يخفق وأن خفقاته تملأ نفسي بشحنات غريبة من العواطف والمشاعر، تجاذبنا أطراف الحديث وقد علمت أنه غادر مقاعد الدراسة منذ زمن لظروف عائلية، لم أتردد في السؤال عن السبب، ساد الصمت لمدة ليست بطويلة ثم قال: الحياة قاسية، أشد قسوة من الصخر. كل ما في الأمر أنه لم يكتب لي أن أكون سعيدا وهذا سبب مقنع لحالتي هذه.

ثم ابتسم ابتسامة غارق جاهد لينقذ نفسه وانتهى به المطاف في فم حوت عملاق ...

تلعثمت في الرد ولم أجد كلمات مناسبة أخفف بها عنه وأزيح عنه

بعض الهموم التي تبدو واضحة وضوح الشمس على محياه، ثم قلت: سيكون خيرًا إن شاء الله.

تطرقنا إلى العديد من المواضيع في مختلف المجالات وشعرت أنه لايزال يتميز بالحنكة والدهاء المعهود، تحدثنا طويلا ولم نشعر بمرور الوقت ثم أخذنا نضحك طويلا كما لو أننا نريد أن نضحك إلى الأبد.

- هل ستقصدين كلية الطب؟

- نعم إن الحلم القديم لايزال يراودني ومنعرجات الحياة لن تستطيع إيقافي.

- نعم هذا يليق بك. لا تستسلمي فلا شيء مستحيل والحياة لازالت أمامك. رحمة.. لا نستطيع أن نعيش دون أحلام، دون طموحات، خلال مشوارك المهني أو الدراسي ستصادفين مختلف الظواهر، أنصحك بالاعتماد على مبدأ الكل أو اللاشيء، وستستطعين دائما تحقيق الأفضل، كلما اشتدت عزيمتك اشتدت إضاءة الطريق أمامك لأن هناك مواقف توقظنا وتصنعنا من جديد، فكم من علاقات توقعنا منها الكثير ووجدنا القليل، وكم من دروس لم تكن في الحسبان لكنها علمتنا الانتباه.

ابتسمت ابتسامة عفوية، شعرت أن تلك الكلمات منحتني الكثير من القوة والعزم وشحنت طاقتي إلى الأمام .

ختمنا اللقاء، بعبارات من الشكر والامتنان ثم ذهب كل منا في سبيله ، كنت بحاجة إلى مثل هذا اللقاء، كدت أن أسقط وكادت تهزمني بعض المواقف المؤلمة .

دخلت غرفتي وأشعلت المصباح، غرفتي أكثر مكان أشعر فيه

بالأمان وأشعر بقرب أحلامي، قريبة.. قريبة جدا، سأصل بإذن الله، ثم نمت نوما عميقا.

استيقظت في الصباح الباكر وكلي نشاط وحيوية.. توجهت مع أمي إلى الكلية لأكمل إجراءات دخول كلية الطب، مرت شهور عدة وحان وقت الالتحاق بمقاعد الدراسة من جديد. في رحلتي تعرفت على الكثير من الدراسات الجديدة والعلوم المختلفة، وآخر ما وصلت إليه التطورات وأحدث الأجهزة الطبية، واختلفت الكثير من المفاهيم.

أدركت بعد سنوات من العمل دون كلل أو ملل أن الطب ليس تشخيص الداء ووصف الدواء وقبض الثمن، إنما الطب أخلاق نبيلة وعلم وهبة الله لعباده لإنقاذ أرواح الملايين من الناس، هناك الكثير من يصارع الألم ويصدر آهات مؤلمة، هناك من أصبح عاجزًا عن الحركة، هناك من بترت يده أو ساقه.. والكثير الكثير من الناس .

الطب ليس شهرة وخزينة من الأموال، فالطبيب لا يبيع الصحة إنما يسعى لإرجاع وبث روح التفاؤل في النفوس من جديد، الطب أن تمنح الناس الصحة دون قيود، دون شروط، دون ثمن، دون انتظار المقابل. أما النجاح ليس أن يمدحك الناس شمالاً وجنوبًا وأنت لا تساوي شيئا عند الله، النجاح ليس أن يخلد التاريخ اسمك من ذهب وأن يلمع بريق شهرتك بين الجماعات، النجاح هو سعي دائم إلى أن تمنح ما عندك للآخرين. فما أجمل أن تكون سببا في سعادة غيرك.

كلنا من الأرض وإلى الأرض، الطب أشرف من أن تلوثه طبقية المجتمع، الشفاء بيد الله والأدوية أسباب فقط، وهل هناك أنبل من مهنة الطب؟

كل منا لديه عالمه الخاص وأنا سيدة عالمي، أفعل الخير وأسعى لترك

من يدعو لي في غيابي، أحب الجميع دون استثناء، أعيش وأستغل كل لحظة من لحظات حياتي برفقة عائلتي وأحبتي لأن هناك لحظات لا تتكرر وابتسامات لا تعوض وأحلام من نور، لن تعود مهما دفعت ثمانًا لها.

ابتسامتك، حبك لغيرك، تضحياتك، طبيعتك وكبرياؤك، أصلك، أشياء تجعل منك تعيش سعيدًا مطمئناً، فلا تدري في أي لحظة تكون ملفوفا بقطعة قماش بيضاء تودع الحياة إلى مثواك الأخير، ستكون في حفرة ضيقة ومكان مظلم وأنت مسؤول عن أفعالك، أقوالك، إنجازاتك خلال عمر أفنيته هنا وهناك. إنّك مسؤول فأعد للسؤال جوابًا وعلى الجواب أنّ يكون صحيحًا.

ألم الماضي

نظرت إلى السماء وقد بدا لونها أكثر جمالاً، اتخذت الغيوم أشكالاً جميلة تبعث على الراحة .

ذهبت بخطوات متثاقلة نحو أمي لأستأذنها الخروج إلى المتنزه رفقة أختي الصغرى أسماء، ذات النظرات الحادة، رغم ما تعانيه من الآلام إلا أنها صامدة وتقاوم بكل ما أوتيت من قوة.

ذات ليلة أصيبت بإعاقة حركية إثر ارتفاع درجة حرارتها، هنا انقلبت الموازين ولم تعد أسماء مرحة كعادتها، لا تفارق غرفتها التي تطل على حديقة المنزل، تارة نراها تراقب أقرانها يلعبون ويمرحون وتارة أخرى نراها تطالع الكتب بكل حب وشغف وترمقني بنظرات مليئة بالخيبة والحزن،كما لو أن هناك مناطق هشة قد خدشت في ذاتها ومن الصعب أن تضمد، الآهات الصادرة من أعماقها صارت ترسم الحزن على ملامحها بكل إتقان، الألم ينهش قلبها الصغير ويجعله سجين الوحدة.

في ليلة شديدة البرودة كانت الأمطار تتساقط بغزارة، كانت تشبه كتلا متساقطة من الحزن وكانت الرياح تزأر وتزمجر في الأرجاء تتحدى الجميع بقوتها، جلست أسماء في كرسيها تنظر من النافذة نظرات غريبة، ثم أغمضت عينيها لتمسك بشيء ثقيل يكاد يسقط منها، ساد صمت ثقيل، ثم أجهشت بالبكاء، تبكي وجسدها كله صرخات مكتومة وكان أنينها يعزف ألحانا تبث الهلع والخوف، ثم تلاشى صوتها كما تتلاشى خيوط الضباب، لم أعر ذلك اهتمامًا كبيرًا جدًا لأنها تفعل هذا كل ليلة، بعد تلك الليلة شعرت أنها قد فقدت

كل شيء وأصبحت شبيهة الوثن لا يتحرك منها شيء غير أهدابها، كانت فراشة صباحية تمرح هنا وهناك دون توقف حتى وهي جليسة الكرسي ترسم الفرحة في وجدان الجميع، أشبه بنغمات يتقاطر منها الندى ويتبعثر منها الياسمين.

نادت أمي بصوت مرتفع: أسماء.. أسماء..

لكنها لم تجب!

أسرعت أمي إلى الغرفة... ندت عنها ابتسامة ناشفة وكلمات مبعثرة فككت الشرود بنبرة من الخوف: ما بكِ يا أسماء؟! ما بكِ...

أسماء... أصبحت خيال إنسان، ظل لنفسها، جثة هامدة تعلو وجهها ملامح الحزن والأسى، جف حلقها وضاق صدرها، لمَ لمْ أنتبه لذلك؟ وقد كانت أختي تعاني شجارا حامي الوطيس بينها وبين نفسها، أنا التي غرست في ذاتها الرغبة المحمومة في البكاء والإحساس بالخزي.. في آخر حديث بيننا سقطت دمعة حارة من بين أهدابها، لم أعر ذلك أي اهتمام ولم أتكبد عناء مواستها، كل تلك الأموال التي خبأتها لنفسي ولم أستطع أن أصنع فرحة أختي التي كانت تنتظرني كل يوم أملاً في خبر سار، بأعماقي شيء ثقيل، صخرة على كاهلي، جرفني هذا إلى جزيرة الإحراج والخجل من نفسي، أصبحت أعيش وسط عالم كل الأحلام على سطحه مؤجلة، طاولة العشاء اكتنفها سكوت جنائزي، ومن يقوى على الكلام في جرح ساهم فيه ثلاثتنا؟ لن يشفى وسيبقى شوكة في حلقي لأنني القاتلة المأجورة.

درب الحياة

اسودت السماء فجأة، خرجت أتمشى في الشارع والدموع تنهمر من عيني، أليس الرزق بيد الله؟ لماذا نذل أنفسنا من أجل العيش إذًا؟ سئمت تراكم الإخفاقات من حولي .

عند عودتي سألتني أمي قائلةً: مابك يا ملاكي الحزين؟

رددت بمرارة: لقد أفقدتني الحياة كثيرًا، أبي ثم أخي ثم أختي ثم... واعتكفت الصمت.

تنهدت فشعرت بمرارة ما تَشْعر به وأن قلبها يحترق كما احترقت أوارق اغتيال والدي المغدور: ستفرج بإذن الله يا بني إنها أيام معدودة ويزول الأسى.

لم يعد الوقت كفيلا للنسيان وكل منا يدرك هذا بل ويجعله يعشش في أعماقه، وضعت رأسي على الوسادة التي كانت مقبرة لدموعي التي لا دخل لي في أوقات نزولها، بدأت الأحداث تتوالى في رأسي وإذ بي جالس فوق غصن شجرة كبيرة متفرعة الجذور والأغصان، تذكرت النزاع الحاد الذي قام بين عمي وأخي الأكبر وعندما بلغ الأمر ذروته وفي آخر المطاف انطفأ نور البصيرة من القلوب وتلاقت بندقيتان في ضربتين يحملان الإحداثيات الزمنية ذاتها وعلى وقعها سقطت جثتان هامدتان وحلقتا معًا إلى سماء العالم الآخر، ونزل الخبر على القرية مثل الساحقة الماحقة.

بعد شجار عنيف في داخلي استسلمت للنوم لكن صوت الأمطار بدد راحتي، فهرعت مسرعًا أنظر إلى الخارج، إنها أمطار غزيرة وستسبب كارثة عظمى، السد الذي بناه أهل القرية لم يعد قادرا على المقاومة،

سيسقط! وإذا سقط ستحل بنا الطامة الكبرى. خرجت مسرعا نحو السد والأمطار لا تزال تهطل بغزارة معلنة سخطها وغضبها على الأرض ومن فيها، وجدت رجال القرية يطوقون السد في حلقة دائرية ويسعون وراء حل يمنعون به هلاكهم، تبّا كل ما في هاته القرية يدعو إلى الحزن واليأس، إذا وقبل فوات الآوان وقبل أن أخسر ما تبقى لي في هاته الحياة سآخذ أمي وأغادر إلى مقاطعة آخرى، فإن لم أستطع مواجهة واقعي فعليّ الهروب منه، سأعود يوما ما إلى هنا وستعود لي الحياة وسأكون سعيدًا .

أخذت أمي بعد أن جمعت في حقيبة مربعة الشكل بعض الأشياء التي تظنها غالية بالنسبة لها، أمّا عني فهي مجرد تفاهات تذكرني بجروح ذاتي العميقة، قطعنا الغابة وكان صوت الرعد يكاد يصم الآذان، اختبأت كل الحيوانات في جحورها، قلت في نفسي: مسكينة هاته الحيوانات لا تعلم هول ما ينتظرها.

بمجرد دخولنا إلى المقاطعة الثانية في البلاد، جلل صوت المؤذن في كل الأرجاء بصوت عذب معلنًا عن صلاة الفجر، فقررت أن أصلي الفجر عسى أن يكون يومي موفقا بينما بقيت أمي بجانب المسجد، إنه مسجد عتيق جدا وبلاطه غاية في الروعة، تسللت الراحة إلى كياني وانزاح كل التعب والهم، خرجت مع أمي نتجول علّنا نجد منزلا صغيرا يأوينا من برد الشتاء، بعد بحث متواصل دون جدوى حل الظلام ونحن نتجول في الأزقة، مرّ بنا رجل تبدو عليه ملامح الطيبة ألقى التحية علينا وسأل عن حالنا وفي سياق الحديث علمت أن له صديقًا يحتاج لمن يعيش في بيته مقابل تنظيفه والاعتناء بحديقته، اعتلت وجهي ابتسامة أمل فقلت له: هل لك أن ترشدنا إليه؟

رحب بذلك وأرشدنا إلى صاحب المنزل وتمت الاتفاقية على خير، فرحت كثيرا وكدت أحلق من الفرح فقد أصبح لنا بيت صغير نحتمي به وقد تكوّن من غرفتين صغيرتين ومطبخ وغرفة جلوس متوسطة الحجم، وقد جهز بأثاث من الطراز القديم.

حدثني أحد الجيران أنه ينظم مسابقة ثقافية وأنه سيكافئ الفائز بملغ مالي ضخم، لم أعر ذلك اهتمامًا، تمنيت له التوفيق ثم غادرت متوجهًا إلى المخبزة .

عند عودتي فتحت التلفاز وصعقت بخبر انفجار السد الكبير في شرق البلاد في المقاطعة الأولى وقد دمر ثلاثة قرى عن بكرة أبيها، انتابني الحزن والأسى، مسقط رأسي والمكان الذي ترعرعت فيها قد اختفى عن الوجود، ماذا عن أهله يا ترى؟ وأصدقائي؟ أصبح حطاما ليس إلا، حقًا هذا مؤلم.

بعد أيام التقيت جارنا وقد ألح عليّ بالمشاركة في المسابقة التي يقيمها، وكان يزعم أنني أهل لها وأستطيع الفوز، بدأت أجمع الكتب الثقافية وكتب التنمية البشرية وغيرها من الكتب أقرأها وأدون ملخصات لها، تعبت كثيرا وأنا أبحث وأكتب لكن هذا أفضل من الجلوس أمام التلفاز بشكل يومي، ضاعفت المجهودات في الآونة الأخيرة لأبلغ المراد.. الجائزة، إنني بحاجة إليها حالة أمي الصحية في تدهور مستمر، إضافة إلى متى سنبقى هنا؟ سيطردوننا ذات يوم إنها إقامة مؤقتة فقط.

بعد حوالي ثمانية أيام حدث ما كنت أخشاه، حضر صاحب المنزل وأمرنا بالمغادرة متأسفًا لأنه سيهدي هذا المنزل إلى ابنة عمه التي سيقام زفافها قريبا، شعرت بالحزن يشق أعماقي إنها نهايتي...

نحن في منتصف الشتاء سنكون وجبة دسمة للكلاب الضارية أو

سنتجمد من شدة البرد، خرجنا في الظلام الحالك وقد أخذت كل كتبي ودفاتري والملخصات التي تعبت من أجلها، عندما شعرنا بالتعب من السير المتواصل دون جدوى توقفنا وجلسنا تحت أحد النوافذ وكادت أطرافنا تتجمد من الصقيع، بدأ الثلج يتساقط وارتدت القرية حلة بيضاء ناصعة، أخذني النوم إلى عالم جميل شعرت فيه بالدفء والأمان، عالم خالٍ من حقد الناس وبغضائهم، عالم ملؤه المحبة والمودة، الكل فيه سعيد لا يعاني ألمًا ولا يشكو فقرًا.

استيقضت على صوت بوق السيارات، بعد محاولات عدة لأجعل أمي تستفيق قد أخذ اليأس مني منالا، في لحظة إدراك اسودّت الحياة أمام عينيّ وأدركت أنها انتقلت إلى جوار ربها وأنها فارقت حياة لم تخلف لها سوى المتاعب والآلام، سندي الوحيد في هاته الحياة قد غاب عني الآن، أمي التي كنت حينما أجالسها أشعر أنني في حضن السماء قد جافت الآن وضاع عبيرها بين التراب، وجودها كان يعطيني مبررا منطقيا للاستمرار، آلمني رحيلها أضعافًا مضاعفة، في لحظاتها الأخيرة ارتسمت على محياها ابتسامة يائسة لما خلفه الدهر بها، كانت تحاول إسعادي ولا تعلم أنها سعادتي الأبدية، ثم بكيت بحرقة، بكيت بكاء الضرير الذي فقد بصره، بكاء المحتاج الذي فقد قوت يومه، بكاء أب فقد فلذة كبده، بكاء عسكري بترت ساقه، بكاء اليتيم المسكين، أسندت رأسي على الحائط وقد اخترقت برودته أعماقي.

بعد مدة لم أذكر كم دامت واصلت رحلتي في البحث لأتقدم للمسابقة ولم يفصلني عنها إلا يومان، خلال هاته المدة منذ أن وطئت قدماي هاته القرية حاولت أن أغير من ذاتي وتصرفاتي وكذلك طريقة تفكيري وأن أحمل الأشياء على محمل الجد، الاختلاف دائما يصنع منك شيئا جميلا، حتى لو جعلك وحيدا ستكون الأجمل، أدركت أن وسط

كل الصرخات والآلام وضيق الطرق هناك فرصة جديدة تحمل في طياتها بذرة أمل جديرة بالاستغلال، كنت سأستسلم ذات يوم لكن ما حثني على التقدم هو أنني دائما أذكر نفسي لماذا بدأت؟ ولماذا تكبدت كل تلك القسوة؟ وصمدت إلى الآن ...

كل مرّ سيمر وكل الهموم ستنجلي ما يترتب علينا إلا الصبر فقط، نمت نومًا عميقًا، توسدت الظلام الحالك، فحتى مقبرة دموعي قد تخلت عني وأنا متطلع للمسابقة التي طال انتظارها، توجهت في صباح اليوم التالي وكلي استعداد لتلقي الأسئلة وقد حضر وفد كبير من المشتركين، ما هي إلا لحظات وأجريت القرعة وابتسم لي الحظ هاته المرة وكنت ضمن المختارين لأبدأ المسابقة، أظن أنني قد أجبت على كل الأسئلة، هل سيحالفني الحظ هاته المرة؟ حلّ صمت نسبي أثناء انتظار الإعلان عن الفائز، ثم صرخ المنشط باسمي ثلاثة مرات متتالية، وقد استدعاني لأتقدم إلى المنصة، شعرت بحالة من الارتباك والخوف ولم أصدق ما حدث، هل فزت؟ نعم فزت! فزت يا أمي.

بعد كل ما حل بي، بعد كل تلك الدروس القاسية، لقد وصلت.. أستطيع أن أحقق أحلامي الآن، سينجح من يستحق فقط، أدركت خلال رحلتي أن الصداقة، الأمل، الوقت، الأحلام، الحب، السعادة أشياء لا نستطيع شراءها.

ما دام الله بجلالته وعظمته بجانبك تقدم حقق أحلامك لا تنطفئ، علق آمالك برب الكون واطمئن، مررت بمراحل ظننت أنها لن تنتهي لكن بفضل الله قد انتهت، لم يعجز عن خلق سبع سموات وسبع أراضي، أيصعب عليك تحقيق ما فاض به فؤادك؟

قربك من الله سيجعلك سعيدا، كن مع الله يكن معك، الله هو ملاذك

الأخير ورفيقك الوحيد، فلا تشكي لغيره ولا تبكي إلا بين يديه وعلى أحضان سجادتك، فالقرب من الله راحة عظيمة لا توازيها راحة، فليس شرطا أن تكون داعيا كي تكون قريبا من الله لأن القرب منه إحساس نابع من الداخل، فاشكر الله دائما على صحتك، على زوجتك وأطفالك ووالديك، على حواسك، على الأمن والأمان... والكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى .

أكثر من الدعاء لأنه سبيل الخير وسيمنحك سر الناجحين ومراد المنتظرين. لاشيء يستحق، فالحياة أقصر من أن نضيعها في عصيان من خلقنا،كن إيجابيا بكل جوارحك وتذكر دائما لا راحة إلا بالقرب من الله.

يتردد على حياتنا اليومية الكثير من الأشخاص ونجد حوالي ٧٥٪ منهم يمتلكون القدرة على تحمل مصاعبهم والوقوف ندًا لها، فرغم مشاكلهم وصعوبة ما يمرون به لا تفارقهم الابتسامة والشعور بالرضا .

ألا تسأل نفسك لماذا؟ إنها قوة التوكل والثقة العميقة بالله، ثقة لا يهزها شيء، إيمان عميق بأن ما كتبه الله هو الأفضل دائما، يقين قوي بأن كل مشكلة وراءها خير كبير فلا إيجابية دون توكل وإيمان ويقين تام بالله، والتوكل عليه أساس التفكير الإيجابي، إذا توكلت على خالقك من أعماقك فقد بدأت في بناء شخصية إيجابية لا محالة. إن مرضت قل: أجر عظيم، إذا تأخر قضاء حاجتك قل: ما تعسر إلا ليتيسر، إذا أصبت بابتلاء قل: فصبر جميل، إذا جرفتك التيارات لأمور تكرهها قل: عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

أنظر دائما للنصف الممتلىء من الكأس، ثق بالله وتوكل عليه واستقم

في صلاتك، تقرب منه بالنوافل، كن ذا شخصية قوية ولا تركع إلا لخالقك .

يتساقط الناس من حولنا بشكل يومي والمقابر مكتظة، يذهب يوم ويأتي يوم يذهب أسبوع ويأتي أسبوع، سنة وراء سنة، الغد أصبح اليوم واليوم سيصبح أمس. تسلب أيامنا كأوراق التقويم الشهرية يوما وراء يوم، نقابل الكثير من الوجوه، نتألم، نفرح، نبكي، نحزن، نضحك، لكن في لحظة إدراك سنجد أنه لم يبقَ سوى ما يتبقى في زجاجة عطر فارغة .

سترحل أجسادنا وتبقى رائحة ذكرياتنا فاجمعوا رحيق ورودكم.. أعماركم أزهار جميلة، وأحسنوا الظن دائما لتنالوا ما تطمحون إليه، ابتسموا رغم كل ما يقابلكم ورددوا: الحمد الله .

ذات يوم

خيم الحزن على القرية، كيف لا؟ وقد تحطمت إثر حرب دامية، سقيت فيها الأرض بدماء الكثيرِ من الأبرياء، لم تكن ليلة كباقي الليالي بل كانت باردة وحزينة، طُمست فيها براءة الأطفال وسلبت سعادة الكبار، حرب حامية الوطيس أغلبها وهم وأقلها دماء متناثرة، أصبحت بلقيس ذات السبع سنوات يتيمة الأب الذي سقط شهيدا دفاعا عن أرض الوطن، سقى بدمه أرضا طيبة وصعبة المنال، استيقظ الجميع على صوت الفاجعة الأليمة وتعالت الأصوات...

بلقيس: ماذا هناك يا أمي؟ أين أبي ؟

- لا شيء يا ابنتي غير أن الحرب قد سلبت منا أدنى أسباب الفرح وسرقت كل ما هو جميل حتى والدك !

ترقرقت الدموع وأخذت مستقرها في عيونها وانهمرت كالسيل وأدركت أن روح الفقيد قد انتقلت محلقة إلى الرفيق الأعلى .

رددت في نفسها: كيف حالك يا أبي؟ متأكدة أنك على ما يرام، أنا جد سعيدة، أفتخر بك يا شهيد الوطن يا حبيب الله...

انصبت الأحزان على أم بلقيس، التي من فرط حزنها كادت تجن لو لا ابنتها التي لا معيل لها من بعده، وقع على كاهلها البيت ومصاريفه والمزرعة وأعمالها الشاقة، الكثير من الأفكار المتواصلة أخذت تتسلل إلى عقلها تدريجيا.

بعد شهرين تقريبا استقر وضع البلاد وحقنت بعض الدماء من أن تراق، وصادفها غلاء المعيشة وصعوبة الرزق الحلال، لم تعد الأم قادرة

على دفع مستحقات الدراسة لابنتها، مؤلم أليس كذلك؟ وقد أحست بلقيس بهول ما تواجهه أمها وصدمت بمرارة الواقع وحرمت من أبسط سبل العيش.

«ليتني لم أكبر.. ليتني لم أعش كل هاته الأزمات.. تمنيت أن أمحو قدري لأعيد رسمه من جديد فيكون أكثر جمالا لكنني أموت وأحيا على أرصفة الانتظار ولا يأتي من غطت أجسامهم أكوام من التراب، حبي للون الأسود أثار جدلا بيني وبين نفسي.. لعل القدر يخبئ لي شيئا جميلا ليوم ما..

كنت في عمر ١١ عندما بدأت التجوال في أزقة المدينة لبيع الحليب وكسب دينارات قليلة تعد على أصابع اليد، خلال هاته السنوات عانيت الكثير من الآلام التي لم تشفَ إلى الآن وتزداد حسرتي كلما رأيت فتاة تحمل حقيبة مدرسية وترتدي الزي المدرسي، إن الخيبة مؤلمة وطعمها مر بالنسبة لفتاة في سني، وكما في كل مرة كنت أنمي الأمل في داخلي وأحثه على الاستمرار، كنت على وشك الانهيار حتى هزمني قول أحدهم فقد قال: أنتِ مثال للقوة والإرادة الصلبة... فواصلت السير في طريقي علي ألقى خيرا.

أثناء السنوات الماضية، خبأت لي الحياة في طياتها أجمل وأروع صديقة قاسمتني كل أحزاني وأفراحي وكانت لي سندا لا يميل ومأمني وأماني في أيام شعرت فيها باليأس يسيطر على كياني...

اليوم ٢٧ من شهر أبريل سيصبح عمري الآن ١٧ سنة.. سرعة الأيام مخيفة، لقد مرت سنوات كثيرة منذ اندلاع الحرب، وناقوس الخطر يدق من جديد، في الآونة الأخيرة شهدت القرى المجاورة غارات جوية، إن العدو يزداد شراسة، قادوا العديد من الشباب لتجنيدهم

للوقوف درعا بشريا أمام العدو الطاغي»

- أتعلمين يا صديقتي يبدو أن الحرب ستعود لا محالة وأمامنا خياران لا ثالث لهما، أو بالأحرى نهايتان إما أن نموت في إحدى الغارات الجوية ونصبح رمادا منسيا، أو أن ننجو ونعيش لنشهد حربا أخرى أكثر عنفا وأشد قسوة فلا أخفيك سرا ... لقد أصبحت تمطر نارا.. تمطر رصاصا...

- لطفك يارب أنا لا أوافقك الرأي، لدي ما يكفي من الشجاعة لأبقى في قريتي وأن تحتضن ترابها جثتي لا يمكنني المغادرة، وأمي أصبحت عجوزا لا تقوى على مشقة السفر لن أتخلى عنها..

- ومن قال هذا يا ذكية؟ أنا لم أقصد هذا، لكن الحرب لا ترحم أحدا، أتظنين أنهم سيشفقون علينا؟ أنتِ بلهاء مصيرنا الموت تحت أقدامهم... تبا لو كنت رجلا لحملت السلاح وحاربت دفاعا عن بلدي... عزيزتي

اعتني بنفسك ربما لن يكون لنا لقاء آخر، ربما لا ألقاكِ بعد يومي هذا.

كان آخر لقاء من ثم تأزم الوضع في البلاد وأصبح الخروج أشبه بالمجازفة بنفسك، لم تهدأ الأوضاع خلال أسبوعين متتالين، ولم يتوقف إطلاق النار للحظة، أخذت أفكر في رفيقة العمر وانتابني القلق عليها، بعد شهر تقريبا عم هدوء جنائزي، خرجت بحذر شديد لأتفقد الأجواء، كان كل شيء قد تحطم والقتلى في كل مكان كما لو أن الأرض قدمت قربانا إلى الله، لوهلة خطرت في عقلي صديقتي فأسرعت متجهة إلى قريتها وصعقني حال القرية... الدماء متناثرة والجثث مبعثرة والجرحى والمصابون يغطون مساحات واسعة من

القرية، تقدمت بخطوات متثاقلة فوجدت رفيقة الدرب جثة هامدة تعلوها ابتسامة يائسة، لا أزال أذكر رعشة جسمي حين رأيت جثتها وجهشت بهستيريا في البكاء والصراخ، أحقا هذا قدري أفقد أغلى ما أملك دائما؟

بعد حالة من العزلة دامت لسنوات، تذكرت حينها مقولتي أن الحياة ممر وليست مستقر وأننا ضيوف على سطح الأرض وما على الضيف إلا الرحيل مهما طالت مدة استضافته، لم آخذ شيئا من قريتي سوى الآلام وخيبات الأمل والفقدان، عزفت الحرب على أوتار حياتي وكانت الغارات الجوية وأصوات الرصاص نغمة لها، نعم بالفعل لم تكذب أمي عندما قالت أن الحرب قد سرقت منا كل شيء جميل... عجبا لهذه الدنيا في بداية الأمر غرباء وفي نهايتها نفترق وقلوبنا تكاد تنفطر من المحبة... سنلتقي ذات يوم، نعم سنلتقي في دار الخلد.

دفنت الحرب كل الأماني والأحلام وجعلتني أتجرع طعم اليأس والألم، علمتني أن الأمل يزرع في النفوس اليائسة حب الحياة والتمسك بها، تخليت عن كل شيء وما كان غاليا على قلبي قد أصبح الآن طريح الغربة وهذا أجمل ما وصلت إليه، وضعت كل شيء بيد الله فإن يد الله تسع كل شيء فما أبعد السماء وما أقرب الأرض.. ستكون الحياة جميلة إذا استطعت أن توفق بين خيالك وواقعك فلا بأس ببعض الوميض في حياتك لتجني السعادة .

التغيير وحب الذات

القليل من التغيير قد يضيف الكثير من ومضات السعادة، وحب الذات أشبه بالشمش المضيئة التي تذيب بدفئها كل الصقيع، يجب على كل شخص أن يبدأ التغيير من نفسه أولا، بحب ذاته، ليضيء كل الزوايا المظلمة داخل نفسه، عاهد نفسك على أن تضع لها خطة مدروسة متيقنا بعزمك أن التغيير لا يأتي بين ليلة وضحها، قد تستغرق نتائجه وقتا طويلا لكن ستظهر لا محالة عندما تبدأ رحلتك في التغيير، تأكد أنك على الطريق الصحيح وما ستصل إليه بعد فترة سيروي ظمأ سنوات من اليأس والخذلان.

الحياة ليست نزهة جميلة، لابد من الاجتهاد لبلوغ القمم وتحقيق المراد، أحيانا فرص التغيير تأتي متنكرة خلف تجارب مؤلمة وأغلبها قاسية، فلا تجعل أخطاء الماضي تقود مستقبلك، فأنت قبطان سفينتك لذلك تصرف بذكاء لتتفادى الغرق.

جميعنا نمتلك أحداثا وظروفا سابقة إما أن تدفع بنا للتقدم إلى الأمام، أو أن نعلق في دولاب الذكريات والآلام، وتأكد أن الذكريات تصبح وخزا في قلبك إذا أعطيتها أكثر من قيمتها، أعد النظر لتلك التجارب على أنها تجارب إيجابية، تمنحك القوة لمواجهة المستقبل، عش حياتك كريما متسامحا، احرق كل صفحات الماضي بنار المودة، أبحر في عالمك الخاص ودنياك الجديدة المبنية على التفاؤل والأمل، لا تكن سجينا للماضي فالحياة تجارب، تعلم من أخطائك فمن الخطأ نهتدي إلى الصواب، لا تجعل التجارب الفاشلة تكون سيدة الموقف بل قاوم وبدد الخوف الذي ينتابك، لا تبرر أفعالك بأهلك أو مجتمعك وطبيعة عيشك وسكنك فمن يريد يستطيع فلا تضيع حياتك بين الشكوى

والتمني، اختر ألوانا جميلة لحياتك ولونها بألوان زاهية لتعبر عمّا بداخلك، إذا غيّرت من نفسك ستذلل المصاعب أمامك، اِندفع إلى الأمام دائما فكل شيء بيد الله.

أعد الأشرعة وابدأ رحلة التغيير ولا تنتظر أن يكون اليأس ملاذك الأخير، إياك والانجراف وراء سلبيات تفقدك توازنك لأنك تستحق أن تحب ذاتك وتستحق أن تغير من نفسك، لأنك أجمل مخلوق على سطح الأرض، أنت مختلف ورائع مهما كان طولك، وزنك، شكلك... أنت جميل لأنك إنسان.

استخدم القدرة التي وهبك الله إياها وكن سلاح نفسك. فقط أنظر إلى ذلك الطفل الذي في داخلك إنه بحاجة للشجاعة والقوة منك، فإن لم تقدر ذاتك وتحبها من سيفعل ذلك؟ إن لم تفعل هذا لن يعيرك أحد اهتمامه فالكل مشغول ببناء حياته والسعي وراء طموحاته، لا تتوقف فاللحظات المؤلمة ستصبح ذكرى جميلة ترويها في قصة نجاحك ذات يوم، تيقن أن كل ما يأتي من عند الله جميل فالحمد لله دائما وأبدا .

لا تدع أحزانك عائقا يسد طريقك، كل منا قد فقد شيئا أو شخصا يحبه ويعني له الكثير، فحتى لو ضحك كثيرا ورأيته سعيدا جدا سيبقى شيء بداخله كلما تذكره تألم وضعف، وربما أصعب شعور هو أن تكتم حزنك وأن يقف الكلام بين شرفة فمك وطريق حنجرتك وستتألم إن أخرجته في كل الحالات وهذا أصدق برهان على أن الجميع يمتلك نقاط ضعف كالثغرات والجميع يسعى لسدها.

ذَلْ الصعاب وتعلم كل ما هو مفيد، لا تفرط في نفسك واحب ذاتك، لأن إعجاب الآخرين لا يساوي شيئا أمام إعجابك بنفسك، أنت المرآءة العاكسة لنفسك فمهما واجهت قاتل من أجل الحلم وعند

شعورك بتعب تذكر لماذا بدأت، ففي الانطلاق ستحتاج إلى الكثير من الصبر والتجاهل والصمت، عش لأجل نفسك وضع العبارة التي تجعلك تؤمن بأهدافك أمامك ولعل آخر ما سأقوله:

«إما أن تدخل رحلتك لتغير من نفسك للأفضل لقوله تعالى: (لا نغير من قوم حتى يغيروا من أنفسهم) وتحب ذاتك وتكون الشجاعة سيدة كل مواقفك، أو أن تتراجع بجبن وتجعل من الخيبة والحزن مستقرا لك» ولك حرية الاختيار.

مهما شعرت بالألم والهزيمة لا تيأس فالانتصار كونك تخطيت هاته العثرات، والله ما أغلق بابا إلا ليفتح عشرة .

صفحة بيضاء

أشعر بحزن شديد فكل ما خططت له باء بالفشل وخيبة الأمل، حتى حلمي تبخر وذهب أدراج الرياح، لا شيء جميل، أصبحت أشعر بغبطة شديدة حين أرى من حولي وهم سعداء جدا وتتعالى ضحكاتهم في كل الأرجاء...

قابلت في إحدى المكاتب فتاة في مقتل العمر لا تتجاوز التاسعة عشر سنة من عمرها، ذات بشرة بيضاء وعيون سوداء، ونظرة حادة وابتسامة جذابة يبدو على وجهها العزم والإصرار.

«سماتهم على وجوههم»

رأيتها عدة مرات وأصبحنا صديقتين، أثناء اجتماعي بها في أحد الأيام تلقت اتصال عدم قبول رغبتها في الالتحاق بكلية الطب ولطالما حدثتني عن مجال الطب وشغفها به، قلت في نفسي ستصدم بهذا الخبر المحزن وستتحطم أمانيها لكن صدمتني بقوتها ولم يظهر عليها أي أثر للحزن أو الألم، هل يعقل أنها تخفي حزنها؟ راودني الفضول لكي أسألها عن سرّ قوتها وسرّ ابتسامتها فليس من الممكن أن تكون تلك الابتسامة مصطنعة..

تقبلت سؤالي بكل صدر رحب وقالت: لمَ أحزن؟ وقد قال سبحانه و تعالى: «فلا يحزنك قولهم»، وقال أيضا: «لاتهنوا ولا تحزنوا»، الحزن لا يليق بنا عزيزتي عليك أن تعيشي هاته الحياة لك لا لمن حولك، والحياة الدنيا فيها العديد من التحديات والمصاعب التي يجب عليك استدراكها، عليك بالصبر والجهاد والأمل لبلوغ القمة، والتعلم في كل مرة، تخلي عن التصنع ليس في الملامح فقط بل في الحياة العامة،

رعوا الأغنام ثم قادوا الأمم أهناك أفضل من هذا؟ قال تعالى بعد بسم الله الرحمان الرحيم: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه»، عزيزتي لن تجدي الأمل ملقى على الأرض بل ارفعي رأسك الي السماء وقولي يا رب، فإن لك ربّا يقول للشيء كن فيكون، الحياة ليست للضعفاء لذلك توجب عليك النهوض في كل مرة تسقطين فيها، الشمس لا تشرق مرتين في يوم واحد وكذلك الحياة لا تعطى مرتين وفرصة عيشها بسعادة لا تعوض، تمسكي بكل أحلامك واسعي وراءها فلا حياة بلا طموحات، وإذا فشلتِ ذات يوم فيكفيك شرف المحاولة، لا تيأسي وانتظري غدا أجمل، جبر من الله سينسيك متاعب سنوات وسنوات، باقترابك من الله يقترب منك كل شيء جميل، لعل وعسى أن تكون تلك الأقدار التي نكرهها قد كتبت لنا في صفحة بيضاء شيئا جميلا، هناك خلف الآفاق أيام تستحق الصبر والمغامرة فكوني أهلا لأحلامك وطموحاتك ليس لأحد بل لنفسك، كوني قوية وابتسمي كما أنه لم يحدث شيء، ما أجمل السعادة حين نصنعها بأنفسنا وما أجمل النصر بعد السقوط، سأخبرك سرا قد دونته في صفحتي البيضاء.. لا تتوقفي لأن الطريق لن يسير متجها إليك، والحلم ليس طائرة ورقية تسرق لتسقط بين يديك، الدنيا سعي دائم إن حاولتِ أن تتراجعي خطوة للوراء ستخسرين ما لديك...

بث حديثها في نفسي الاطمئنان وكانت إيجابيات رائعة منحتني الكثير من القوة والتفاؤل فلا يزال الحلم قائما ما دمت على قيد الحياة والطريق لازال طويلا فلا بأس ببعض العثرات لأننا أشياء جميلة نجسد الأجمل، فلا شيء فوق عزة نفسي وأحلامي فمن يحتاجك بشكل مؤقت ويقلل من احترامك أهجره بشكل دائم ودعه يغرق في قذارته، ومهما طال الليل ستشرق وستبقى مجرد حديث لا أكثر لأن الله معنا، لا خوف ولا

قلق وكل ما يأتي من الله جميل وما تعسرت إلا تيسرت.

تمر الحياة بين حلم وأمنية ولا يحدث إلا ما كتبه الله، عيون تحلم وقلوب تتمنى ورب كريم، وها أنا اليوم أطوي صفحات الماضي الذي لن يعود ومتحمسة لغد أفضل بإذن الله .

شهادة رسمية

بعد أربع ساعات من فترة الاختبارات عادت إلى البيت وبدا عليها الإرهاق والتعب، وندت عنها ابتسامة ناشفة، تناولت وجبة الغداء بتثاقل شديد، لم يجرؤ أحد على أن يسألها عن الامتحان أو كيف كان، إنها المرة الثالثة على التوالي التي تعيد فيها السنة.

في المساء عند عودتها اتجهت إلى غرفتها سريعًا وخيم علينا صمت رهيب، وقفت كالوثن، كنت أشبه بتمثال متآكل، سارة أختي التي أكبرها بثلاث سنوات، كانت مثل الزهرة الجورية رحيقها يضفي لمسة سحرية على الحياة فتصبح أكثر سعادة.

في سنة ٢٠١٨ كانت مقبلة على شهادة رسمية، غمرتها السعادة وتحمست لقضاء آخر سنة لها في الثانوية والانتقال إلى مرحلة أعلى خاصة أنها كانت من بين الطلبة المتميزين، انقلبت الموازين في طرف عين وأخذ القدر تيارا معاكسا لما خطت له سارة، ففي أحد أيام الشتاء الباردة غطى ظلام دامس كل الأرجاء، كانت الساعة الخامسة تقريبًا، كانت دقائق ثقيلة جدًا وعقارب الساعة تصارع كي لا تنزاح عن مكانها، كانت الثانوية تبعد عن منزلنا حوالي ساعة إلا ربع سيرًا على الأقدام، بينما كانت سارة غائصة في أحلامها وكانت على تحالف مع طيف الأحلام على أن يزورها كل يوم كي يكسبها قوة المثابرة والاستمرار، فجأة هوت أمامها جثة شاب عشريني وقد لفظ آخر أنفاسه إثر رصاصات عزفت أنغام الحزن والاستبداد، أنغام الانتقام واليأس، أنغام الظلم والفساد، تناثرت الدماء على العشب وأخذت تتدفق بسرعة بالغة، زأرت الرياح وتراكمت الغيوم واشتدّ المطر، انفجرت شرايين الكرة الأرضية وارتدت لباسا أسودا، لباس ليس له

مثيل، لكي تكون الشاهد الوحيد على جريمة مروعة.

عادت سارة إلى المنزل بعد استفاقتها من حالة هسترية من الخوف والهلع، كان جسدها مليء بالصرخات المكتومة ورعشات عنيفة، تلاشت كل أحلامها كما يتلاشى النور بفعل مغيب الشمس معلنة عن انتهاء يوم آخر...

في صباح اليوم التالي عنونت كل الجرائد عن مقتل الفتى العشريني وعرضت كل محطات التلفاز صوره، مقدمة لوالديه أحر التعازي متمنين لهم جميل الصبر والسلوان، بهذا دخلت سارة في متاهات كبيرة واعتلتها صدمة نفسية حادة، عانت صراعات عنيفة بينها وبين نفسها.

بعد أشهر من الحادثة وبعد اجتياز امتحانات الشهادة الرسمية، وقع علينا نبأ رسوبها مثل الساحقة الماحقة، حزن الجميع ولم يجرؤ أحد على عتابها بينما فضلت هي الصمت، الصمت المرعب الذي انتابها لم يكن يبشر بالخير، أغمضت عينيها كما لو أنها تخشى أن يسقط منها شيء ثقيل قد كتمته في نفسها لمدة طويلة.

بعد هذه الحادثة لاحظ الجميع وكذا كل الأقرباء شرودها، عزلتها وابتعادها عن الجميع، حيث كان اليأس سيد كل مواقفها، حل محل تلك الفتاة المرحة، البشوشة والطموحة، فتاة عكسها تمامًا، فتاة لا تقوى حتى على الدفاع عن نفسها، فتاة شديدة البأس،كلما تذكرت تلك الحادثة ينهش الحزن قلبها ويشعرها بضيق شديد ورغبة في البكاء وبهذا ترسخت الحادثة ولم تعد تفارق مخيلتها، إلى أن ضاق صندوق صدرها الصغير وجف حلقها لأنها لم تكن بارعة في إخفاء الآهات الصادرة من أعماقها، وأظن أن تلك الخدوش في ذاتها العميقة التي يراها البعض طفيفة كانت أشد ألمًا من غيرها.

كانت سنة ٢٠١٨ أسوأ سنة قد مرت على العائلة، الجميع في حالة مزرية تبعث على الخيبة والخزي، في صباح اليوم التالي رافقها أبي إلى مركز الامتحان، عند عودته اكتفى بالصمت وخلى مع نفسه يفكر بهول ما سيحدث إذا استمرت ابنته على هاته الحالة، ثم بدأ يدخن بشراهة لمحاربة الأفكار السيئة التي اجتاحت مخيلته.

بينما كانت أمي منهمكة في إعداد الشاي لأبي الذي يروق له مع الاطلاع على الجرائد وآخر ما ورد فيها، وبعد صمت شديد دام لأكثر من ربع ساعة مزقت أمي غشاء الصمت قائلة: إن حالة سارة تزداد سوءا ألا ترى ذلك يا رجل؟

أبي: وماذا بوسعي أن أفعل؟

أمي: يجب أن نعرضها على أخصائي نفسي لعلها تستعيد رونق حياتها. إنها شابة في مقتبل العمر أقرانها يتسابقون لبلوغ القمم وهي لا تزال عالقة في دولاب الذكريات.

أبي: هوني على نفسك يا امرأة، لا أحد يعلم هول ما شاهدته في تلك الليلة، أعلم أنه من الصعب عليها تجاوز ما قد حصل، لكنها ليست النهاية لقد مرت ثلاث سنوات، وقد ذبلت كوورد الياسمين إن أمرها يقلقني، يجعلني محطة لليأس. ستفرج بإذن الله.

مرت أيام الامتحان الأربعة سريعًا جدا وعادت سارة منزوية في غرفتها ولا تستهوي الحديث لأي أحد، كل ما تفعله النظر إلى سقف الغرفة أو الجلوس بجانب النافذة، ربما كانت تبوح بثقل ما تحمله إلى الطيور التي كانت رفيقتها أو أنها تدعوها للانخراط في عزلتها التي تجاوزت الحدود، أظن أنها بحاجة إلى طبيب نفسي.

ماذا عن الحلم الذي كان يراودها؟ كيف استسلمت بكل هذه

السهولة؟ لماذا لم تكافح من أجله؟ كان عليها تسلق جبال الصبر بكل احتراف لتتجاوز ألمها، كثيرًا ما كانت تردد أنها تمادت في الأحلام ونسيت أنها تزول تحت أقدام القدر.

نهضت من مكاني وأسرعت إليها، صرخت في وجهها قائلة: إنه مجرد حادث لماذا تفتعلين هذا بنفسك؟ ألا تزعجك حالة والديك؟ ألا تشعرين بإرهاقهما بسببك؟ ثلاث سنوات ألم تكن كفيلة بأن تنسي الأمر؟ إنك تبالغين كثيرا كثيرا جدا .

خرجت من الغرفة مسرعة وصفعت الباب في وجهها، لم تتكبد عناء الإجابة عن أسئلتي التي رافقتها موجة غضب حادة لم أستطيع التحكم فيها، شعرت بألم شديد في كل أنحاء جسمي بعد السير المتواصل حتى بلغت الحديقة، تمنيت من قرارة نفسي أن تعود كما كانت في سابق عهدها، ندمت على تلك الكلمات التي تفوهت بها لكن قد ساءني حالها كثيرا..

عند عودتي وجدتها أمام المرآة بعينين جاحظتين وابتسامة ناشفة، بدت قسمات وجهها أكثر جدية، انحنت على مكتبها وأخذت ورقه بيضاء وكتبت فيها الكثير من الأشياء واستمرت لساعات، ثم مزقتها ورمتها في سلة المهملات، نظرت إلى السماء وتأملت كثيرا ظننت أنها شفيت من صدمتها وأضحت أكثر سعادة مما كانت عليه، جهزت الفطور مع أمي وكانت تبدي ابتسامة جذابة ورافقتنا في عطلة نهاية الأسبوع.

مضت الأيام يوم تلو الآخر، ما لم يكن في الحسبان حدث في تلك الأيام السوداء التي اجتاحت العائلة، ذات صباح استيقظنا على جثة سارة التي حلقت روحها على حين غفلة، شُيعت سارة إلى مثواها

الأخير، دون فك شيفرة تلك الورقة البيضاء التي مزقتها في ذلك اليوم وقد حملت الكثير من الأسرار الدفينة، ربما كانت في أمس الحاجة على أن يبادر أحدنا ويحدثها عما يرهقها، عما يثقل كاهلها، آه ويا حسرتاه لم يفعل أحد هذا، تلك الجروح العميقة في ذاتها رافقتها طول ثلاث سنوات وبددت كل سعادة قد شعرت بها من قبل، صمت والدي قد نتج عنه إهمال أسري أدى إلى فقدان مدللة المنزل زهرة السعادة التي فاح عبيرها في منزلنا لمدة عشرين سنة كاملة، توالت الأفكار في رأسي وقد أرهقني التفكير، وأمضيت بقية عمري في رؤية أفراد أسرتي وهم يذبلون الواحد تلو الآخر، والحزن قد عشش في بيتنا لسنوات عدة وساد صمت رهيب يكتنفه هدوء جنائزي، لا أعلم هل انتهيت أنا أم انتهت سلسلة الأفكار التي جعلت مني محطة لتعذيب وتأنيب نفسي، كل الأحداث التي مررت بها رسمها القدر ولسوء حظي قد سطرتها الحياة، لكن ذنبي كان أكبر من أن يمحوه الزمان.

فيكتوريا

فيكتوريا طفلة في مقتبل العمر لا تعلم شيئا عن صولجان الحياة وتقلباته المريرة، لا تعلم شيئا عن قسوة البشر وبغضهم، لا سبيل لها لتعلم أن الحظ لا يحالف الجميع وأن الأموال تصنع طريقا في البحر أعمق مما تتصور .

تنحدر فيكتوريا من قرية بعيدة عن المدينة، يسودها الاكتئاب، أبسط أحلامها في عمرها آنذاك أن تنهي مراحل التعليم لينتهي بها المطاف إلى عمل تكسب منه رزقا حلالا، لإعانة أسرتها المتكونة من خمسة أفراد، وقد انحنى ظهر والدها العجوز من صوت الدهر وقساوته لكي تكون الشمعة التي افتقرت إليها العائلة في ليالي سوداء مظلمة.

قبل بزوغ الفجر ينطلق العجوز برفقة ابنته، وقد أخذ منها البرد منفذا، فقد كان يوما شديد البرودة، بعد مدة طويلة من السير تستبشر الفتاة بدفء نور الشمس بعد أن كادت تتجمد أطرافها من شدة البرد، فور وصولها إلى المدينة كانت تتجه مسرعة إلى مدرستها، ربما كانت المدرسة هي رفيقتها الوحيدة التي تفتح لها ذراعيها دون انتظار مقابل، تزاول الفتاة الدوام فور دخولها لمكتبها وتحاول تقديم أفضل ما لديها، بعد انتهاء الدوام تخرج الفتاة إلى فناء المدرسة فتصعق بتقلبات الطقس

حيث أصبحت الأمطار تتساقط دونما هوادة.

جلست فيكتوريا في مكان بعيد قليلاً عن فناء المدرسة محاولة منها تجنب قطرات الأمطار التي جمدت كيانها وبللت ثيابها، مر أحد الرجال ينحصر عمره بين ٤٠ و ٤٥ سنة وتقدم إليها سائلًا: أما من مأوى يأويك من برد الشتاء القارص؟ أليس لديك أقارب تلجئين إليهم؟

أجابت فيكتوريا بنبرة يملؤها الحزن والأسى: ليس لي أحد إلا الله وهو حسبي وبه استغيث.

هرعت مبتعدة عن ذلك المكان، وارتجفت عظامها من رياح عاتية سببت لها قشعريرة في بدنها، ثيابها رثة لا تقيها من برودة الجو، خرجت إحدى السيدات وقد بدت عليها الطيبة، فأمسكت بيد الطفلة الصغيرة وقد عرضت عليها أن تأخذها معها إلى منزلها لتجفف ثيابها المبللة وتأخذ قسطًا من الراحة، لكن الفتاة رفضت رفضًا قاطعًا لأن وصية أمها كانت تترنن على أذنها بأن لا تتكلم إلى الغرباء، وألا تذهب إلى بيوت الناس وقاية من شرورهم، بعد إصرار شديد من تلك السيدة على أن ترافقها إلى منزلها، شعرت الفتاة بطيبة تلك المرأة، فاستودعت نفسها عند الله الذي لا تضيع ودائعه ووضعت يدها في راحة المرأة الطيبة.

عندما بلغتا المنزل لقيت ترحيبًا حارًا من عائلة المرأة الطيبة وسط جو دافئ يغمرهم، تجاذبت الفتاة الصغيرة أطراف الحديث مع السيدة منشن التي غمرتها حنانا وحبا وبعد وجبة الغداء انتظرت الفتاة موعد الدوام لتغادر إلى مدرستها، ظنت فيكتوريا أن كل الناس لطفاء وأن أمها على خطأ فقد ساعدتها السيدة منشن وقدمت لها الحب والحنان، بعد ساعة ونصف تمسك السيدة منشن الطفلة وتسيران معًا متوجهتين

إلى المكتب تلقي عليها تحية وداع على أمل أن تلتقي بها مجددًا و تقبل جبينها متمنية لها حياة سعيدة.

بعد انتهاء الدوام غمرت الفتاة سعادة كبيرة عندما رأت ظل رجل أمام باب المدرسة وكانت متيقنة بأنه والدها، سردت ما حدث على والدها وأمها، فصنعت والدة الطفلة فيكتوريا طبقًا من الكعك وطلبت من فيكتوريا أن توصله إلى السيدة منشن إكرامًا لها لما فعلته مع ابنتها.

أصبحت فيكتوريا تتردد إلى منزل السيدة منشن بشكل يومي، وأحيانًا تساعد ابنتها في حل وظائفها، بعد سنوات عديدة انتهى الحلم الجميل بوفاة السيدة منشن الطيبة؛ ففي إحدى زيارات الفتاة فيكتوريا إلى منزل السيدة منشن حزنت لأنها كانت آخر زيارة، فقد شُيعت فيها السيدة منشن إلى مثواها الأخير تاركةً وراءها طفلتين ينفطر القلب برؤيتهما وقد خيم عليهما شبح الحزن، غطت غيمة اليأس بيتهما.

واصلت فيكتوريا رحلتها في الحياة سعيًا وراء خطط الطفولة علها تبلغ مرادها ذات يوم، كما جرت العادة في الصباح انطلقت الفتاة برفقة والدها في جو بارد، بعد تعب وإرهاق شديد بلغا المدينة، عرض الأب على ابنته أن يتجها إلى أحد أقاربهما في المدينة، استغربت الفتاة من حديث والدها فلم تكن تعلم أنهم يمتلكون أقرباء في المدينة لكنها سُعدت لهذا النبأ ظنًا منها أنها ستنعم بطعام لذيذ ومأوى دافئ كما كانت تفعل معها السيدة منشن رحمها الله، لكنها تجرعت ذوق المرارة حين فتح العم ماكس باب القبو وطلب منهما أن يبقيا هنا حتى تهدأ أحوال الجو ثم أن يغادرا فور توقف المطر، شعر الأب بانكسار شديد في ذاته العميقة لأنه لم يوفر شيئا لصغيرته التي تملأ بيته فرحًا وسرورًا بينما استكملت هي الأخرى نومها على أريكة يملؤها الغبار وتحاصرها

فضلات الجرذان ويتدلى من فوقها نسيج العنكبوت.

مضى نصف فصل الشتاء وبقي النصف الآخر الذي سيكون أشد برودة وقسوة، في اليوم التالي اكفهرت السماء وتساقطت أمطار غزيرة، كما لو أنها تخفي شيئا من الغموض حول تساقطها، انتهى دوام المساء وقد انتشر الظلام في كل الأنحاء وعشعش الخوف في كيان الطفلة المسكينة التي لا معيل لها في مكان لا تعرف فيه أحدا، تأخر ولدها، فقررت أن تذهب إلى بيت عمها، بعد طرقات متتالية لم يفتح أحد الباب، رغم أنها كانت متيقنة أنهم في المنزل، بعد نصف ساعة خرجت إحدى بنات عمها وقد طردتها بكل قسوة وشراسة وطلبت منها أن لا تأتي إلى هذا المكان ثانية وقد نعتتها بالقبيحة، في تلك اللحظة تحطمت كل أماني الطفلة فيكتوريا وأقسمت في نفسها على أن لا تعود إلى هذا المكان، وعلى أن تسعى جاهدة لتحقيق حلمها وعلى أن تفتح بابها لكل زائر ولكل محتاج فلا تنكس الضعيف ولا تتكبر على الفقير.

أنعم الله على فيكتوريا بصديقات ليس لهن مثيل رغم فقرهن ومعاناتهن كنّ يصنعن الفرح لبعضهن البعض؛ فسالي يتيمة الأبوين تأخذ الطعام خلسة من مطبخ جدتها مسرعة به إلى فيكتوريا رغم ما تتلقاه في الليل من توبيخ، ولان التي كانت تقسم معها أقل ما تحصل عليه من زوجة أبيها الشرسة ذات الملامح المرعبة.

فيكتوريا قوة جامحة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، جعلها الله قوية الإيمان رغم معاناتها مع البرد ورغم أنها ترتدي ثيابا رثة تجلب سخرية زملائها منها إلا أنها لم تشأ أن تكسر خاطر والدها وتحمله أكثر من طاقته.

كبرت فيكتوريا وكبر ألمها معها، غادر والدها العجوز إلى مدينة

أخرى بعيدة آلاف الكليومترات عن قريتهم النائية، تاركًا وراءه خمسة أطفال، فوجدت فيكتوريا نفسها مسؤولة عن رعاية إخوتها فهذا ما رسمه القدر، لكنها كانت دائما تتطلع إلى ذلك اليوم الذي ستصبح فيه أكثر سعادة، لقاها الحظ بإحدى السيدات التي تمتلك ورشة للخياطة فاستأنفت العمل في الورشة مقابل مبلغ زهيد، عاشت معنى الوحدة الحقيقية، تصدت لاحتقار المجتمع وسخرية الناس منها أو بالأحرى احتقارهم لها (المظاهر)، كل ما يحكم عليه الإنسان هو المظهر فقط الذي لم يكن يوما معيارًا للحكم بين البشر، فلا فرق بين أعجمي وعربي إلا بالتقوى .

اليوم فيكتوريا ذات ٣٨ ربيعًا مديرة أعمال في أرقى الشركات في العالم وهذا دليل على أن الفقر لم يكن يوما عائقًا أمام طموحاتها، ونظرة الناس لم تنقص ذرة من ثقتها بنفسها، امرأة تحدت المستحيل ووصلت إلى أرقى الأماكن بفضل الله وبفضل جهودها الجبارة، لم تغيرها مكانتها ونفوذها ولم تجعلها تتخلى عن أصلها بل على العكس تماما، تزور المريض وترأف لحال الفقير، تعيل المسكين وتطعم اليتيم، تربت على كتف الحزين وتضمد جروح المصاب، فقد صنعت منها كل تلك المواقف فتاة ذات شخصية قوية تتحدى كل الصعاب لبلوغ القمم ولا تأبه لكلام الناس ولا تعيره أي اهتمام لأن الذي يريد أن يصل سيصل بإذن الله وحده لا شريك له وبفضل الله فقط.

المواقف والحياة

فيرونكا فتاة تنحدر من محافظة عريقة، رغم انتمائها إلى أسرة غنية إلا أنها كانت منبوذة بين زميلاتها، بسبب أناقتها البالغة وجمالها الأخاذ، شعرها الذهبي يزيد من رونق جمالها وعيناها البرونزيتان تزيد من حدة نظراتها، كانت تملك ثقة عمياء في نفسها حد الغرور، وترسم دائما لوحة الأسرة الثرية السعيدة التي لا يتخللها أي ثغر يودي بالعائلة إلى السقوط، لكن في الواقع لم تكن كذلك بل كانت أسوأ بكثير.

جولي رفيقتها الوحيدة التي كانت مثل الحائط تتكئ عليه كلما قست عليها الأيام، جولي الصديقة والأخت صندوق لجميع الآلام وبئر الأسرار، مرت أيام عصيبة على الأسرة الثرية وضاع صيت سلطتها في البلاد، بعد الثراء الفاحش قامت نزاعات عنيفة بين أفراد الأسرة وأدت إلى سقوط العائلة الأسطورة وقد فقدت كل ثروتها، أصبحت فيرونكا تشعر بالوحدة وتفضل العزلة التي كانت ملجأها الوحيد ومستقرها الدائم.

مضت الأيام وتوالت السنين، وقاست فيرونكا الكثير من الآلام والخيبات، أخيرًا تحقق ما كان حلم بالأمس والتحقت فرونكا وجولي بجامعة في محافظة أخرى، وقد عملت نادلة في إحدى المقاهي النسائية لتستطيع تغطية مصاريف دراستها حيث كانت الأولى في جامعتها وذلك لحنكتها ودهائها في الدراسة وتمسكها بحلمها وطموحها، بعد ثلاثة أشهر من العمل الشاق الذي جعل من جسدها أكثر نحافة وبهت بريق شعرها الذهبي، تحولت نظراتها الحادة إلى نظرات بائسة لفتاة كافحت الكثير من المصاعب ولا زالت تقف متصدية لسوط القدر، عند عودتها وجدت جولي في انتظارها.

منذ أربع سنوات غادرت جولي وفيرونكا المحافظة لينتقلا إلى الجامعة

وبعد بحث طويل عثرتا على بيت للإيجار ولم يكن ذلك الأمر يسيرا، والتحقت كل منهما بعمل لتساعد في تكاليف ومصاريف المنزل الذي أصبح مسؤوليتهما، كانتا رفيقتان متحابتان كثيرًا، ولم يستطع الدهر أن يغير من طيبة قلبيهما، ارتشفت فيرونكا فنجانا من الشاي وبعضا من البسكويت فتوالى على ذهنها شريط ذكريتها حيث كانت طفلة تنعم بالحب والحنان الأسري، شعرت بطيف السعادة سيلقى على جدران قلبها، لكن سرعان ما تبدد بظهور صورة والديها الذين تخليا عنها بينما كانت في أمس الحاجة إليهما وسط جفاف عاطفي، بعد صراعات عائلية حامية الوطيس، انتهت بانحدار العائلة وتشتتها وقد غرقت سفينة أسطورتهم بين الأمواج العاتية منذ ربع قرن تقريبًا ، أصبحت فيرونكا يتيمة الوالدين وهما على قيد الحياة، كثيرًا ما كانت تردد أنها تمادت في نسج أحلامها فقطعها القدر بمقص حاد، لكنها سارت في دربها إيمانًا بالذي هو قادم، وقع على كاهلها الكثير من الآلام، لم تجد من يربط على قلبها ويداوي جروحها؛ فالجميع قد انسحب منذ سقوط أسطورة العائلة، أغلقت كل الأبواب في وجهها ولم تترك بابًا ولم تطرقه لكنها كانت دائما محطّ إهانة وسخرية من الفتيات اللاتي في عمرها.

تساقطت من عينيها رذاذًا من الدموع تحسرًا على بعض ما خلفه الماضي من ظروف صعبة، ها هي الآن صاحبة ٢٣ ربيعًا محطّ اهتمام الجميع لما قدمته من تضحيات في سبيل تحقيق طموحها الذي رست عليه سفينة الأماني بعد سنوات من الجد والكد، بعد عمر مديد تزور أقدامها قبر والديها الذين لم يشأ القدر أن يجمع شملهما في الدنيا وشاء أن يتجاور قبراهما في الآخرة، هذه هي الدنيا تخبئ لنا الكثير بين طياتها، لذلك وجب علينا استغلال كل اللحظات بحلوها ومرها لأنها ستكون ذكريات ذات يوم .

الغريب

كانت زوجة صالحة فاتنة الجمال، تعيش برفقة صغارها الثلاثة في بيت دافئ يسوده الهدوء والأمان، حيث كان ملجأ لها ولأولادها في أيام الشدة، أيام لم يأبه أحد بظروفهم، فقد دخل الزوج السجن ظلمًا في جريمة قتل لم يكن له أي دخل فيها، لكن كيد الحاقدين ومؤامراتهم قد وجهت إليه أصابع الاتهام دون أدنى دليل يدينه، ودفنت قضيته في أرشيف قديم وتراكم عليه الغبار، مدة ليست محددة ومجهولة المدى.

أخذت الزوجة تعمل بكل جد وكد لكسب قوت يومها وإعالة أطفالها، كي لا يعبث طيف الحزن بقلوبهم ويجعلهم أكثر تشتتًا، فذئاب البشرية وألسنتها كانت أشد حدة من أنياب الضباع الضارية، تقف على الأرصفة تبيع الخضر والفواكه وبعض الأسماء، وكانت تقلبات الحياة كفيلة بأن تجعلها أكثر قوة من أجل أطفالها، تعمل لعشر ساعات يوميًا وتعود قبل أن تأذن الشمس بالمغيب لتعيد الدفئ لذلك المنزل التي رسمت على جدرانه ذكريات خليلها الذي وُضع خلف القضبان ظلمًا، تعد وجبة العشاء بكل لطف ومحبة بالرغم من الإرهاق الذي تشعر به، وتلك الأحلام التي تجتاح تفكيرها وتجعلها هي الأخرى سجينة الماضي، ففي لحظات معدودة تكاد تحصى ينقلب كل شيء، باشتياقها لزوجها تزداد معاناتها فسند البيت وركيزته الأساسية قد خطفته الأقدار وكتبت له مسارًا آخر مخالف لتيار غريب ولن يعود.

عندما يجتمع الأطفال على مائدة الطعام تضع الأم خمسة أطباق بدل أربعة، لتذكر أبناءها بمكانة والدهم الذي طال انتظاره وطالت مدة غيابة، فأرصفة الانتظار تعج بالمنتظرين لكن دون جدوى، وأصبح فضول الأطفال سيدًا لكل مواقفهم فأخذوا يتساءلون عن موعد

عودة أبيهم، بعد أن خُيل لهم أنه قد مات وأمهم قد أخفت الأمر خشية حزنهم، فترد بحسرة كبيرة وتحاول إخفاء حزنها لكنه ينتصر وتذرف الدموع، ثم تجيب: سيأتي.

تنحني الأم على طاولة صغيرة لتراجع دروس أبنائها وقد كان أملها الوحيد أن يكبروا ليخففوا عليها من قسوة هذه الدنيا وأن يصدوا عنها كلام الناس الذي كان مثل السم في جسم الإنسان لا يستطيع العقل إدراك سرعة انتشاره ناهيك عن الألفاظ السيئة التي ينعتونها بها، هكذا هم الناس لا يسعون إلى تضميد جروح غيرهم بل يضعون الملح على الجروح ويغمسوا مخالبهم بكل قوة في قلوب غيرهم، تنصب تلك الكلمات على ذاتها مثل نار تحرق كل مايأتي أمامها، هكذا بني جنسي يتلذذون بآلام غيرهم ومعاناتهم، تلك الأمور التي تبدو لأحدنا بسيطة وتلك الكلمات البسيطة التي نتفوه بها دون مبالاة بمفعولها تكون سببًا في تدمير الآخرين وأذيتهم.

ينام الأطفال على صوت أمهم العذب وهي تغني ألحانًا في غاية التناسق والإتقان، وإذا فاجأها أحد أطفالها سائلا عن لحن هذا الحزن تقص عليه قصة العصفور النادر الذي كان تائها في بيداء الحياة ثم سجن في قفص لجماله ورونق صوته.

تنهض في الصباح الباكر وتعرض وجهها إلى نسمات الفجر باردة، رغم شحوب وجهها إلا أن ابتسامتها كانت رمزًا للسعادة، وتتجلى على محياها بصمات الأمل وتخفي بين جفونها حزنا عميقا، وفي قلبها جرح لن يشفى حتى يعود غريبها، تعبث نيران الاشتياق بقلبها الحنون فبعد يوم كامل من الكبرياء والتحدي يخيم الليل ويخيم الحزن على ذاتها من جديد وتكون الوسادة مقبرة لدموعها السيالة، توقد الموقد

وتحضر أكواب الحليب وما تيسر من الطعام وتضعهم على الطاولة ثم تسرع إلى غرفة أطفالها و بصوت حنون توقظهم ليتجهزوا للمدرسة.

في هذا الصباح لم يكن الأطفال على عادتهم، قال أكبرهم: إننا نشتاق لأبي بكثرة ولم نره منذ زمن بعيد لِمَ تخفين عنا الحقيقة؟ فنحن لم نعد صغارًا.

أجابت بحزن: سيعود.

شعر الابن بحزن والدته فطبع قبلة على جبينها واعتذر بحرارة وخرج مع إخوته إلى مدرستهم. مرت الأيام سريعا، وسار قطار الحياة على سكة الأقدار مخلفًا وراءه ذكريات تنهش القلب نهشًا، وطالت الرحلة والانتظار وازداد ضمأ الاشيتاق، ورياح الحنين كانت تهز الكيان وتقشعر لها الأبدان.

حل فصل الشتاء ببرده القارس وثلوج ناصعة البياض، في ليلة باردة اجتمع الأطفال والأم على مائدة العشاء وتجاذبوا أطراف الحديث، بعد وجبة دسمة نظرت الأم وهي تجمع الأطباق إلى طبق زوجها ثم نظرت إلى الباب لعله يُطرق فتشبع عينيها بالنظر إلى خليلها وهو يعود من جديد، وتعود معه سعادتها التي رافقته إلى السجن ذات يوم، في لحظة توقف عندها الزمن وابتسم القدر،لكن ابتسامة خبيثة! طُرق الباب فاستغرب الجميع، من طرق بابهم في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

الأم: من الطارق؟

فإذا بها تستمع صوتا مألوفًا وحكمت الأقدار على وميض من السعادة ينزل على ذلك المنزل الدافىء، انهمر سيل الدموع من عينيها بكل حزن، عاد الغائب بعد طول انتظار.

ثم صرخت بكل قوتها: لقد عاد والدكم، لقد عاد .

ارتمت في حضنه فور فتحها للباب بعد سنوات من الفراق والاشتياق، عاد من ضحت من أجله بالنفس والنفيس ولم تجعل من كلام الناس يحدث ثغورًا في نفسها، فلم تفكر في تركه يومًا بالرغم من صعوبة الانتظار لكنها كانت أكثر وأشد صبرًا.

دخل زوجها الذي تغير تغيرًا جذريًا في ملامح وجهه، فلم يجد الأطفال صعوبةً في التعرف عليه، وكانت ملامح التشابه كثيرة بينه وبين الصورة المعلقة في الجدران، صورة رافقتهم لسنوات كي تخفف عليهم ألم الفراق، تيقن الأطفال أن أمهم كانت صادقة على الدوام وأن والدهم عاد كما وعدتهم .

توالت الأيام واطّلع الزوج على كل الأحداث التي توالت في غيابه، بعد أيام لاحظ الزوج سوء صحة زوجته وتدهورها نحو الأسوأ بمرور الأيام فطلب منها التوقف عن العمل وبعد إصرار كبير منه لم يفلح في إقناعها، عادت ذات يوم وكانت مرهقة جدًا، ووجهها شديد الاصفرار وبدا عليها التعب بشكل أوضح، فطلب منها زوجها أن ترتاح قليلاً، فاتجهت إلى غرفتها دون أن تنبس ببنت شفة، نظرت إلى أغراض صغارها المترامية هنا وهناك ثم عانقت صورة جمعت أبناءها الثلاثة، ضمتها إلى صدرها بشدة كما لو أنها أحست بدنو أجلها.

عاد الأطفال في المساء فسأل أكبرهم عن أمه، فأجابه والده بشيء من الاهتمام والخوف: لقد عادت متعبة فخلدت للنوم فور عودتها.

استغرب الطفل نوم أمه في هذا الوقت، ذهب إلى غرفتها فوجدها نائمة وارتسمت على محياها ابتسامة يائسة، هذه المرة أتى ملك الموت زائرًا للمنزل فلم يجد أحدًا فأخذ أمه وحلق بعيدًا في السماء، فلم تأخذ

معها شيئا من متاع الدنيا، وتركت وراءها محرمتها الحمراء مرمية على بلاط الأرض .

أدرك الأطفال يوم الجنازة أن سندهم الذي لا يميل قد تهاوى بالسقوط، وأن من كان يدوس الجمر من أجلهم قد انصهر ولم يعد له وجود.

ارتدى الأب قناعًا آخر من أقنعته فتوالت الأيام وتوالت الأحداث، جمع الأب أغراض الأم ليرميهم في القمامة فصعق بردة فعل أبنائه الذين أبدوا غضبًا كبيرًا ،كانت أمهم وفية لزوجها وانتظرته سنوات كثيرة لكنه خدعها فلم يلبث قليلاً بعد موتها وقرر الزواج من جديد وأن يعيش حياته كما أنه لم يكن شيء، ولم يكتفي بهذا فقط بل تجرأ على رمي أغراضها، حتى وإن ماتت فهي حية ترزق في قلوبنا، لن تفارق مخيلتنا فما رسمته هي في نفوسنا من الصعب على أمثالك محوه .

أدرك الأبناء أن القذارة ليس لها حدود وأن العهد لا يوفي به إلا الصادقون، أن الأقنعة ستسقط ذات ويأخذ كل ذي حق حقه.

ألكسندر

ألكسندر صاحب ١٢ ربيعًا، يتيم الأب، كُسرت أجنحته قبل أن تطأ أحلامه الواقع، كانت طفولته حافلة بالمصاعب والآلام، غادر مقاعد الدراسة وعيناه تملأهما الدموع مسلمًا أمره لله، تحمل مسؤولية إخوته الأربعة وأمه، بعد ثلاثة أشهر من البحث المتواصل حالفه الحظ في الحصول على عمل، لم تمتلك أسرته شيئًا غير عنزة تستمد منها بعض الحليب، بعد العمل يعود في المساء محملًا ببعض الفطر والأعشاب لتكون وجبة عشاء.

سيطر القلق على أم ألكسندر التي لم تر الخير منذ وفاة زوجها، تقلبت كل الأحوال وأغلقت كل الأبواب في وجهها، لم يعد ألكسندر في الوقت المحدد، وضعت القدر على موقد الحطب الذي كان منبع الضوء الوحيد للكوخ، كان القدر ممتلئا بالماء كي تخفف على أطفالها ألم الجوع، تضور أطفالها جوعًا وتضورت هي حزنًا وقلقًا على ابنها البكر.

بعد منتصف الليل استيقظت الأم على صوت نباح كلاب القرية، بعد لحظات طُرق الباب فنهضت مسرعةً لتطمئن قلبها، سُرّت برؤية ألكسندر ويداه محملتان بالخضر والفواكه وأصناف من الحلوى، انتعش البيت بقدوم ألكسندر ودبت فيه الحيوية من جديد، استيقظ إخوته وكلهم فرح بعودته سالمًا غانمًا.

بعد مدة وجيزة اكتسى المنزل حلة الهدوء من جديد وانزوت الأم مع ابنها البكر، وبعد حديث طويل دافئ ممزوج بالحب والحنان بادرت وسألته عن عمله، فقص عليها ما حدث وأن صاحب العمل قد

طرده في بادىء الأمر لأنه صغير على مثل هذه الأعمال الشاقة، وأن الأطفال الذين في مثل عمره ينعمون بالراحة في منازلهم، هنا شعرت الأم بطعنات متتالية في صدرها وكانت كلماته كالسهام السامة تخترق جسدها لأنها السبب في كون ابنها على هاته الحال وشعرت أنها أم سيئة، لكن في الحقيقة سوط الدهر كان أقوى بكثير من قدرة تحملها.

واصل حديثه قائلاً: مشيت بخطوات مشتة وشعرت بأن شيئا ثقيلًا فوق قلبي، وضقت ذرعًا بما أحمل، سرت قليلاً فسمعته يناديني ففرحت ظنًا مني أنه قبل توظيفي، لكن صُدمت بمرارة الواقع، أخرج من جيبه أوراقا نقدية وقدمها لي، أحسست بالذل والقهر رفضت ذلك المبلغ لأنني لم أتعب عليه وهو ليس من حقي، ابتعدت عن المكان بخطوات ثابتة وجذبني صوت صراخ العمال، توقفوا عن العمل فجأة ورموا كل أدوات العمل وتوقفت كل آلالات معًا، غضب العمال من سيدهم واشتعلت نيران الغضب في قلوبهم وكانت بادية على وجوههم لأنه طردني، طرد ذلك اليتيم الذي لا معيل له ولا حصون تحميه من ذئاب ضارية وسط متجمع تلوثه الطبقية، شعر سيدهم في قرارة نفسه بشيء من الندم والعجز معًا لأنه صاحب ضمير حي. بعد مدة سمعت أحدهم يناديني كان أحد العمال فطلب مني العودة إلى المعمل مقابل أجر شهري أضمن منه العيش الكريم، شعرت أنني في حضن السماء وكدت أحلق فرحًا، ذهبت معه ورحب بي كل العمال وتعاملوا معي بكل لطف وحنان، عملت بكل جهد وحصلت على هذا المبلغ والذي هو جزء من راتبي الشهري، ولم أشأ أن أعود إلى المنزل خالي اليدين، الحمد لله الذي أنعم عليّ بهذا المنصب.

يحمل ألكسندر في كل صباح بعض الخبز ليأكله كوجبة للغداء ويتجه إلى عمله، تحسنت ظروفهم بعض الشيء وحفز هذا الوضع

ألكسندر على الاستمرار في العمل وبذل جهدا أكبر رغم الانتكاسات التي يشعر بها، لم يتذمر يومًا ولم يتوقف عن العمل بل على العكس تمامًا ازداد عزمًا وإيمانًا.

بينما كان العمال يتناولون وجبة الغداء، كان ألكسندر يجلس بقرب الجسر الكبير الذي خبأ معظم أسراره، وأصغى بكل إخلاص إلى تلك الآهات الطالعة من أعماقه، وعامله معاملة الرأفة بالطفل الذي غادره طيف الفرح مبكرًا، وكتبت له الأقدار الحزن والأسى، يحمل أوراق بيضاء مستعملة قد وجدها في السلع التي تم استخدامها وبعض قطع الفحم، فيرسم رسومًا تكاد تنطق لمن يراها يُظهر فيها كل براعته.

مرت سنتان وواصل ألكسندر العمل بكل جد وهكذا توالت الأيام والأشهر، ذات يوم أتى رب العمل وقاده الفضول ليسأل عن ألكسندر لأنه لم يكن موجودًا بين العمال في فترة استراحتهم، أخبره أحدهم أنه دائم الجلوس قرب الجسر الكبير فذهب إليه وبالصدفة اطّلع مارك على تلك الرسوم التي كان ألكسندر يرسمها بكل حب، وذُهل لهول ما رآه من إبداع وإتقان لم يسبق لعينيه أن رأت مثله في التجسيد، شعر الولد بالفرح لأن رسومه قد نالت إعجاب مارك.

هبت رياح عاتية لم تكن في الحسبان وحملت في طياتها بذور السعادة لذلك اليتيم لترسم مسارًا جديدًا يخلد اسمه على مر الزمان، سقطت صورة تجسد ما شعر به من حسرة وألم مزق كيانه وهو يغادر مقاعد الدراسة وتحكاي الواقع في قساوة الظروف واحتقار ناس، قرر مارك وعزم في نفسه على أن لا يضيّع مثل هذه الموهبة، قرر أن يسانده ويجعل منه رائدًا في شركات الهندسة ومديرًا في المعاهد المدرسية حيث رسم وخطط لكل هذا في مخيلته بأدق التفاصيل.

من هنا تبدأ رحلة مارك وألكسندر، بعدما أدرك ألكسندر أن مارك يريد حقًا مساعدته ولم يشأ فيه شرًا، اعتمد عليه ووكل أمره لرب العرش العظيم، انطلق إلى أحد المرافق التعلمية الخاصة، بعد ستة أشهر متواصلة من الدراسة عوض مافاته من دروس لمدة سنتين والتحق بمدرسة أخرى، في هذه المدة تكفل مارك بأمه وإخوته.

عندما بلغ ١٨ سنة حصل على الشهادة بامتياز وباشر من فوره الدراسة في معهد الهندسة وكان الأول في معهده، تصدر اسمه قوائم الناجحين لأربع سنوات متواصلة لدهائه وحنكته، وتفرع إلى فرع الهندسة المعمارية خارج المقاطعة التي كان يقطنها، في هذه الأثناء كان يعيل أسرته من منحة المعهد، يرسل جل المبلغ إلى أمه ويحتفظ إلا بالقليل الذي يحتاج إليه، بعد تحصله على شهادة الهندسة المعمارية أصبح اليوم ذو ٢٤ ربيعًا، وطأت قدماه موطنه الأصلي بعد سنوات من الغربة التي كانت تنهش من جسمه وتأكل قلبه، فلولا حبه للهندسة وسعيه وراء شغفه لعاد منذ زمن.

كبر إخوته و أصبح كل منهم في منصب راقٍ ولائق بهم ففرح كثيرا لأن تعبه لم يذهب هباءً، انقلب كل حزنه فرحًا فلا سعادة تعادل سعادته برؤية إخوته وهم يتطلعون إلى الأفق البعيد بكل أمل وتفاؤل، بعد سنة غادر مع أمه وإخوته نحو بلد غريب تاركًا وراءه ذكريات لا تعد ولا تحصى ليبدأ رحلة جديدة في مستقبله المشرق، كونه قد أصبح مهندسًا معروفًا ذو مكانة مرموقة، عرف مجال الهندسة الكثير من التطورات بفضله، تحصل على الكثير من التّرقيات ووصل إلى مراتب عالية بتوفيق من الله.

بعد سنوات قليلة تزوج وأنجب طفلين وعاش سعادة غامرة، كان مارك يتردد عليهم بشكل دائم وهو صاحب الفضل الكبير بعد الله فيما وصل إليه ألكسندر، في يوم عادي كسابقه من الأيام التي أصبحت

سرعتها مرعبة، عقارب الساعة لا تتوقف وكذلك رحلة الحياة لم تتوقف، وصل إليه عقد عمل في القرية التي هجرها منذ سنوات، شعر بالسعادة لأن الأقدام قد ساقته إلى تلك المنطقة من جديد، أعد العدة وانطلق برفقة سائقه إلى عين المكان، لم تتغير قط لم يكن الدهر كفيلًا بأن يمحو تلك الذكريات التي رسخت في قلبه بشكل متقن، رحبت به قريته واستقبلته بزهور الياسمين والأقحوان وشقائق النعمان، زقزقة العصافير وخرير مياه الأنهار، إشراقة الشمس الذهبية، نقاوة الهواء التي كانت تنعش الروح.

عندما فتح أوراق التصميم وجد أن تلك المدرسة التي فتحت له ذراعيها واستقبلته ذات يوم وترعرع بين أحضانها وعاش أياما لا يمكن أن تتكرر بحاجة إلى ترميم ليواصل الأطفال الدراسة فيها، أملا في غد أجمل، باشر في العمل من فوره وأعاد تصميمها وجعلها أجمل مما كانت عليه وأضاف إليها الكثير من المرافق التي يحتاجها الطلاب وتكفل بكل المصاريف، رسم على جدرانها ألواحًا جميلة، وفي واجهتها رسم رجلًا وقد اشتعل رأسه شيبًا وأخذ منه العمر عتيًا يحمل حقيبته ويتجه نحو مقعده المدرسي، أثارت هذه الوحة الجدل بين المدراء والمفتشين لاختلافهم في معناها الذي كان: الحياة ممر وليست مستقر وأن العمر طويل وليس مديد والعلم ممدود وليس محدود، لابد للطيور أن تعود إلى موطنها وإن طالت الرحلة.

أنهى ألكسندر واجبه على أكمل وجه وأخيرًا قادته أقدامه إلى المقبرة حيث ينام والده بسلام و فوق عظامه كومة من التراب، تزينه الأزهار الملونه مثل ما ترصع الجواهر التيجان الغالية، أخبره بأنه قد وفى بوعده وأنه لم يفارقه ولو للحظة، أنه كان دائمًا يتطلع إلى هذا اليوم الذي يقف بجانب قبره وقد وفى بوعده.

أمل اللقاء

الحروف عبثا لا تنتظم، مترددة متمردة على خط كلماتي خوفا وأسفا لحزن فتى تاه بين أزقة القصص والروايات، باحثا عن جواب يشفي غليله ويريح تفكيره، لعله بين السطور يصبو للمبتغى، بين الألف والألف ميم تروي عطش اللام بآخرها، فسقى حبكة مخيلته الظمأى حبرا تروي عطش السين والنون وما يتبعها من ياء ونون..

نام نومة أهل الكهف حين زاره طيف الراحلين، توسد حزنه الدفين وأوقد شعلة الحنين، استحضر لعنة فكره لتتجلى الذكريات على مرآى عينيه ليسبق الدمع شهقة الوجع والأنين، ليمسحها بكلتا يديه، يحتضنها وتحضنه.

عتمة الليل الظلماء تحرقه، أين يفر من ذكرى رحيل الجنة أمه؟ أين السبيل للقائها بين السطور؟

بين حضن الحبيبين ودقات القلوب يعزي نفسه أملا في غفوة تأخذه إليها، يشتهي رشفة الموت طمعا في لقيا حبيبته، لم تسع الدنيا أحلامه، وحيد هو بين غربة الأحضان من حوله، أماه مهلا فأنا العليل دونك تائه في غيابك، ظلمة في نور أيامي وضيق في الأنفاس يكاد يخنقني.

لينام بعدما نهش الشوق روحه وأحرق مدمعه، ولم يستيقظ هذه المرة على أمل اللقاء وأمل الجبر ودفء الحضن.

أرجوحة

لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة، كثيرًا ما نستصيغ هاته العبارة ثم ننسج غيمة التفاؤل إيمانًا بغد أفضل تحت أروقة الحياة التي تبعث على السرور، ترمينا أرجوحة الحياة في أماكن لا نريدها ولم نحلم بها يومًا، ولم تكن مرادنا على الدوام، تقدم الحزن بكل أناقة ليأكل قلبي بالشوكة والسكين، الفشل سبب لي شجارا حامي الوطيس بيني وبين نفسي، فلم تعد الأفلام مهربًا ولا المسلسلات والأغاني ملجأ ولا الحديث علاجا ولا العائلة احتواء، ولا الأصحاب حائطا أتكئ عليه.

لم تعد الكتب تغذي عقلي ولا النوم راحة لجسدي، ظلام الليل يستمر حتى في الصباح والحزن موحش ذو أنياب، المشاعر متقلبة والروتين متكرر، عقارب الساعة قد أنهكت، الحياة مسرحية أعجبتني أم لم تعجبني فقد دفعت ثمن التّذكرة، أترنح على حبال القدر وأعزف ألحانًا متناغمة، لكن ليس كل سقوط نهاية فسقوط المطر أجمل بداية.

رتب وميض الأمل كل ما بعثرته الحياة وأعاد كل شيء لمكانه المناسب، النجاح وليد التجارب الفاشلة وإعجابك بنفسك لا يساوي شيئا أمام إعجاب الناس بك ومدحهم لك، لا أحد يعلم ثقل ما كنت تحمل ولا الآلام التي كنت تشعر بها ولا حتى تلك الليالي الطويلة التي قضيتها ترجو معجزة من الله ليغير حياتك، لا أحد يعلم بطريق الأشواك الذي مررت عليه، الأمل أن نحيا من جديد، أن نستفيق من دوامة الافتراضات، أن نواصل السير حتى في أقصى الظروف والانتهاكات، الفشل لا يعني النهاية، حاول مرات ومرات وإن لم تنجح فيكفيك شرف المحاولة.

فراشة صباحية

بكيت فجر البارحة، بكيت بكاء مكسور الجناح الذي سئم المحاولة، الآلام تنهش جسدي النحيل لأنني جليسة هذا الكرسي اللعين، الجميع يضحك ويشفق على تلك البلهاء جليسة الكرسي، ينظرون لي نظرات يملأها الغرور، لمَ تغتر يا ابن آدم؟ ونهايتك تحت كومة من التراب، لمَ تغتر يا ابن آدم؟ ونهايتك ملفوف بغطاء أبيض ناصع لونه، ألا يجرفك هذا إلى جزيرة الإحراج والخجل من نفسك؟

الغرور فشل مقنع وشجار حامي الوطيس، جف حلقي وضاق صدري فقد كنت مثل فراشة صباحية، لكن غرور من حولي قد جعل مني زهرة أقحوان وقد فقدت كل أوراقها، وقفت كالوثن أشاهد ما يجري حولي ثم تلاشيت مثل تلاشي خيوط الدخان، أغمضت عيني بشدة وكأنني أريد أن أمسك بشيء ثقيل خشية أن يسقط مني .

موانئ الأمل

فاض فؤادي بالأحلام والطموحات التي لابد من السعي ورءها في دوروب الحياة الوعرة، الأمل ما أجمل هاته الكلمة والأجمل أن تبثها في نفوس الآخرين، أمل في تغيير شيء صغير في أنفسهم إنها بذور السعادة وتستمر إن وجدت الإيمان بها، بالأمل نبدد اليأس ومهما اكفهرت السماء واسودت ستشرق من جديد، ما دام نبضك قائمًا فإنك تستطيع أن تمتطي غيمة الأمل التي سرعان ما تجذبنا نحو أحلام وردية، فتجعل من طيف الأحلام رفيقًا لنا ولا يغادرنا حتى في ظلمات الليل.

تحملنا أرجوحة الحياة إلى أشخاص وأماكن لا نعلم عنها شيئا وعند مغادرتها تكاد تنفطر قلوبنا من شدة المحبة، عن مرارة الفشل أكتب... عن بريق الأمل أكتب... عن الغد الأفضل أكتب... عن ترياق اليأس أكتب... عن الحياة أكتب.

لقد رست سفينتي على موانئ الأمل ويبدو أنها لا تريد التزحزح من مكانها، الآمال معلقة لغد أفضل بإذن الله.

سكة الحياة

حزمت حقائبي لأغادر دون عودة، أغادر عالمًا ملأته الخيبة والأحزان وغدت تنهش من جسدي تدريجيًا وتأكل قلبي بالشوكة والسكين بكبرياء جامح، أغادر لعالم آخر لا أعرف عنه شيئا، عالم يسوده الهدوء حيث أعتكف فيه الصمت الأبدي، ينتابني شعور غريب بين مرارة تلك الأيام وقسوتها.

أنا التي كنت أنبض بالأمل أنسج غيوم التفاؤل بكل حب وعطاء، اتخذتك بيتًا من عجز الأيام وغدر الزمان، سار بي قطار العمر على سكة الحياة وقد شارف إلى الوصول لنهايتها، كيف للقلب أن يمحو تلك الذكريات الجملية؟ كيف للقلب أن ينسى لوعة رحيلك وقد أسكنك الفؤاد بأكمله؟ زرعتك في الوريد حتى تتورد وتزهر وكثيرًا ما كنت أضمك إلى صدري خشية أن ينتزعك القدر مني على حين غرة، لكن طيور السمان حلقت بكَ عاليًا إلى سماء الأحلام والأمنيات .

القاتلة المأجورة

قلبي تائه في بيداء لا نهاية لها بين أشرطة الذكريات التي لم أجد السبيل للتخلص منها، حتى في بحور النسيان لم تغرق بل أخذت تقاوم وعادت من جديد لتذكرني بمرارة فشلي، وجروحي التي لم أجد تضميدها، جروح تشوه تضاريس قلبي، وتبدي على وجهي اليأس الذي اتخذ مني مستقرًا ولم يشأ أن يتركني وحيدًا وسط ذكريات تنهش جسدي وتأكل قلبي بالشوكة والسكين بطريقة أنيقة، تلقيت نبأ سجني المؤبد بين حطام نفسي في ورقة بيضاء ملفوفة، ضحكت ساخرًا من نفسي! تبًا أنا من سطرت أحداث هاته الورقة وكنت سعيدًا آنذاك، ظنًا مني أن الوقت سيعمل عمله وتصبح ذكريات لا تحدث أي تأثير، لكن بعدها أيقنت أنني أنا الذكرى العابرة التي ستتبدد ذات يوم بفعل فاعل، آه... حصل ما حصل!

لكن مرارة الفشل اجتمعت في حلقي كالزجاج المطحون، أعيش جثة فقط أما فيما يخص قلبي فقد أصابته قاتلة مأجورة خريجة الذكريات، أصابته برصاصة طائشة ومن ثم لم أسمع له نبضًا، نزلت دمعة ساخنة من بين أشفاري معلنة على خضوعي لسوط الذكريات .

سراب

عبثًا الحروف لا تنتظم والكلمات لا تستقيم، عالقة في دولاب الذكريات بين الأحلام والأماني، أتطلع إلى القمر الذي اجتمعنا تحت ظله ذات ليلة، وكان بيننا عهود زائفة وأقوال كاذبة، المشاعر متقلبة والروتين متكرر وعقارب الساعة قد انهكت، نبض حبك في قلبي يزيد من وتيرته ويسرع في دقاته، تماديت في الأحلام ونسيت أن الأماني تزول تحت أقدام القدر،كنت أعلم أنك لست من نصيبي وأوقن كل اليقين أننا سنصل لنهاية ذات يوم، ها قد وصلنا وأعلنت لي أنك كنت مجرد سراب عابر لا أصل له من الصحة .

معاطف الأمل

تمطر السماء بغموض شديد كما لو أنها قد أثقلت بالهموم وذاقت ذرعا بما تحمل، لم تعد الشمس تشرق كسابق عهدها، لا أدري هل بهت نورها أم أنا الذي انطفأت؟ اكفهرت السماء وامتلأت بالغيوم، هبت رياح اليأس فارتدى الجميع معاطف الأمل إلا أنا فقد ضيعت ما تبقى لي من عمري، بعض السنين تعد على الأصابع ضيعتها بين الشكوى والتذمر .

ماذا لو تعود الأيام الجميلة التي تمنيت فيه أن ألعب حتى أتعب ولا أحمل وزر أي شيء؟ أريد فقط أن أعيش، ماذا لو يبتسم لي القدر مرة أخرى؟ لأمتطي فرسي وأتوجه نحو مستقبل أفضل، أداعب أطياف الأمنيات كما يفعل أقراني، ماذا لو لم تبتر ساق الأمنيات؟ لكنت سأجري في الشوارع كقاتل مأجور، ياله من حلم !

أما واقعي فقد امتلأ كياني بالفشل الذريع فلم أعد أبحث عن لذة الحياة، تائه في الظلام أسير ولا أدري أين المستقر، آخر ما فقدته هو قلبي في إحدى أزقة شوارع باريس عندما رأيت تلك الجذابة صاحبة الابتسامة الساحرة والشعر الأصفر ولون عينيها كان يتحدى العالم بجمال رونقه .

حطام الغربة

إنها متمردة وساذجة، تبكي مثل الأطفال، وقفت مثل تمثال متآكل، كادت الدموع أن تنفلت بين رموشها، فتوسدت الظلام الدامس ونامت وقد سبق الدمع شهقة الوجع والأنين، نهشت الغربة ما تبقى من جسدها، تعيش منذ المدى البعيد غريبة في بلد اكتظ بالحزن، تمنت لو تكون السنين القادمة شافية لكل جروحها، ابتسامتها الاصطناعية كانت تزيد من ألمها في غربة لا منقذ فيها، ذبلت روحها المزهرة لأن الغربة لا تروي إلا سمومًا قاتلةً.

صنعت سعادة بعيدة عن موطني لكن سرعان ما ودعتها إلى مثواها الأخير، في قبر منسي لا يسقيه أحد ولا يتذكره أحد.

الغربة تؤلمني في أشبه بتجمع الزجاج المطحون في حلقي، تمنيت أن أشفى على يد أحدهم لكن كنت الضحية في كل مرة، والدهر لم يكن كفيلا بالنسيان كما عرف عنه لأن الغربة حطمت روحي جراء الأحزان المتراكمة، لا أعلم شيئًا غير أنني قد ضعت في بيداء لا نهاية لها .

رياح اليأس

الكلمات تنتحر من شرفة فمي ولا أستطيع التقاطها، أشعر أنني سجين الخيبة التي تنهش من جسدي شيئا فشيئا، أستعيد في كل ليلة شريط ذكرياتي فأستشعر الألم في كل جسدي، عشقت اللون الأسود حتى تلونت به حياتي، كل المواقف كانت ضدي فأصبحت أنظر فقط دون حركة، أموت وأحيا على أرصفة الانتظار ولا يأتي الراحلون، لطالما انتظرت ذلك المنقذ الذي سيخرجني من دوامة الافتراضات لأنها قد غدت تجذبني بعنف.

ما أقسى أن يقف الكلام بين حنجرتك ولسانك، إن أخرجته ندمت وإن أبقيته تألمت، كلها أحداث متتالية... تمنيت لو كنت أستطيع التّحرر من قيودي، وسأسرع حينها لأضمد جروحي، وأقطع حبال الخيبة والألم، وأتحول إلى غيمة أمل لكل من كُسرت أجنحتهم، أبثُ التفاؤل في أنفسهم، لكن غادرني طيف الأمنيات قبل أن أحرك ساكناً، بُترت ساق الأمنيات وأصبحت طيرا مكسور الجناح وقع في مصيدة أعدها صياد ماكر فدفعت الثمن غاليا، ها أنا أسير في عالم مظلم لا أمل فيه وقد اقتلعت رياح اليأس كل الأماني، فعجزت عن الكلام واكتنف المكان هدوءا جنائزيا.

حب تمحوه الفوارق

عرفت أحد المقاطعات قصة حب ليس لها مثيل، ولن يكون لها مثيل.

بدأت عندما كانت تجلس على ضفة النهر وتنظر إلي، النهر الذي كان يعكس رونق جمالها، كانت سلطانة زمانها، ابنة أغنى العائلات في المقاطعة، يتسابقون للحصول على قلب تلك العذراء صاحبة ١٧ سنة، بينما شُغفت هي بأحد الشبان من مقاطعة مجاورة وشهد النهر على كل تلك المقابلات ورسائل الحب والغرام، تزقزق الطيور برؤية لقائهم، كانت نسرين تزداد حبا وشغفًا بخليلها الأسمر.

توالت السنين ومشى القطار على سكة الحياة، كبر الحب وأصبحت كل المنطقة تشيد بذلك الحب، كانت جدة نسرين مقبرة لأسرارها، ولم تكن قادرة على نار الحب التي اشتعلت في قلبها، كانت الجدة تصفه بالحب الأعمى لأنها ترى مساوئ ذلك الشاب بينما كانت نسرين شغوفة بمحاسنه، ذات يوم وصلت إلى الشاب برقية الخدمة الوطنية، وكان عليه الذهاب إجباريًا ودون مماطلة، حزنت نسرين حزنًا عميقًا لأنها لن ترى خليلها لأكثر من سنة، توجهت إلى محطة الحافلات لتوديعه بعد عبارات المحبة والأشواق.

رأى بلال أن جميع الشبان ينظرون إليها بنظرات مليئة بالخبث والطمع فطلب منها المغادرة فورًا، وأن لا تغادر المنزل إلى حين عودته، وعدها بأنه عند عودته سيتقدم لخطبتها ويعيش معها سيناريو الأحلام الذي كتبته الأشواق والحنين منذ سنوات طويلة.

مضت السنوات على أحر من الجمر، كانت الرسائل هي الوحيدة التي تخمد شوق محبوبته وتعيلها على الصبر لأنها لم تشأ أن تتخلى عنه،

تقدم إلى خطبتها العديد من الشبان لكنها رفضت رفضًا تامًا في انتظار ذلك الغائب عله يعود يوما لتعود للحياة من جديد.

بعد أربع سنوات عاد بلال ولم تتغير ملامحه كثيرًا، بينما ازدادت نسرين جمالًا، سُرت كثيرًا برؤيته من جديد وقد فصلتها أيام معدودة على خطبها، تقدم بلال لخطبتها لكنه صعق لهول ما سمع، رفضه والدها رفضًا تامًا متحججًا بأنه فقير ولا يقدر على تلبية حاجيات ابنته التي تعد من الطبقة النبيلة، صاحبة العيون البراقة والشعر الذهبي،كيف لتلك الأميرة أن تعيش مثل عصفور محبوسة في قفص، عادة يحبس العصفور لجماله ورونق صوته، لكن الأجدر به أن يكون حرا ويحلق في السماء دونما هوادة، اخترقت هذه الكلمات روحه مثل الأسهم، وجعلته يفور غضبًا.

حقد بلال على نسرين وكل عائلتها، أعمى الحقد بصيرته واشتعلت نار الحقد في قلبه معلنة عن نار الانتقام التي ستغير من تضاريس ذلك الحب، قلّ اهتمامه وقلّت رسائله، قل لقاؤهما وإذا التقيا يتحدثان لدقائق معدودة ثم ينصرف كل منهما إلى عمله، شعر بلال أن ذلك الشغف للقائها قد تغير، وأصبحت شخصًا عاديًا بالنسبة إليه، أطفأت نار الانتقام ذلك الشغف ونزعت معطف الحنين والاشتياق، بترت ساق الأحلام والأمنيات التي نسجها الأمل ولم يكتبها القدر، لحظات رسخت بحروف من إخلاص ووفاء لكن نيران الانتقام أكلت الأخضر واليابس وحرقت صفحات الماضي، حرقت ما كان بالأمس حلمًا جميلاً.

قرر بلال المغادرة لينفذ خطته وكان حذرًا على أن تتم كما خطط لها، أعلم نسرين أنه سيغادر القرية ليجمع المال ويعود للزواج منها،

شعرت ببصيص من الأمل يتسلل إلى كيانها، وبدت على قسمات وجهها سعادة كبيرة، ولسوء حظها لم تعلم أن سعادتها مؤقتة وأن أيامها ستنقلب رأسًا على عقب، كانت تتجهز وتشتري فساتين جميلة وتستعد للزواج حينما يعود خليلها، كانت جدتها حريصة على أن تكون حفيدتها سعيدة، كانت دائمة التشيجع لها كلما شعرت حفيدتها بالضعف وهي تجمع حطام نفسها وخيبتها التي أصبحت جرحا لا يشفى، ذلك الحب تحول في غيابه إلى طعنة سكين حاد، وعدت بلال بأن يبقى المالك الوحيد لقلبها ولم تره منذ ذلك اليوم، في آخر لقاء رمقها بنظرة حزينة فخشيت أن ينتزعه القدر منها وبقت مخيلتها قابعة في ذلك اللقاء، رسائله التي كتبت بكل عناية وكل سطر فيها يوحي بحب شديد أخفى هو الحب بين السطور وأخفت هي الشوق والحنين، فبادرت الأيام وأخفت الحزن والألم بين طايتها، الأشياء البسيطة التي تركها، تلك الزهور التي جفت وضاع عبيرها، كلها أشياء تذكرها بمرارة الشوق، وتجعلها تغوص في دولاب الذكريات، فقدت الأمل في عودته، شحب وجهها وأنهكت صحتها وتغيرت ملامحها، شعرت أنه تخلى عنها ليعيش حياة سعيدة، لكن لا يعقل هذا! كيف لذلك الحب أن يموت؟ كيف لذلك الشغف أن يدفن؟ أسئلة تراكمت على كاهلها ولم تعد قادرة على مقاومتها.

عاشت المقاطعة حقبة زمنية صعبة جدًا انتشرت فيها الحروب وقطاع الطرق، تسلل الخوف إلى قلب والد نسرين وبعد تفكير طويل قرر أن يغادر هذه المقاطعة وبيع كل أملاكه، وأنبأ زوجته فوافقته الرأي وباشر من فوره في البحث عن مشتري، تقدم لخطبة نسرين رجل من الأثرياء، لكنها رفضته مما أثار غضب والدها فانهمرت دموعها صارخة مترددة لقد جردتها عائلتها من براءتها ورونق طفولتها وأخيرًا تريد سلبها حق

الابتسام فانصبت آلامها بين السطور وخذلتها الأحرف في كتمان ألمها لأن روحها تحتضر وقلبها يكاد ينفطر، تمزقت تلك الخيوط الرقيقة وأصبحت أشد ألما من ذي قبل، انزوت إلى منارة الانتظار دون أن تحرك ساكنًا، أصبحت كالخرساء تراقب كل شيء بعيون ذابلة وصمت رهيب، تحجرت الدموع بين رموشها، شوقها لرفيق الروح قد جعل منها كائنا بلا روح نعتته بفارس أحلامها لكن يبدو أن فارسها قد سلك تيارًا مغايرًا فقد طال الانتظار، تألمت من حدة تلك الكلمات التي تتردد على مسامعها باستمرار، أيعقل أن تكون على خطأ؟ أيعقل أن تكون قد سلمت قلبها إلى الشخص الخطأ؟ لم ترهقها الحياة بقدر ما أرهقها التفكير في الماضي والحاضر والمستقبل، كلها أزمنة عابرة لكن سجنها كان يطبق عليها الحصار.

بعد سنوات من الألم والحزن قررت أخيرًا الخروج من هذا السجن بكسر كل الحواجز، كانت تجلس بين زهور الأقحوان في أحد الحقول تداعب تلك الزهور الجميلة، تغيرت نعم تغيرت كثيرًا فلم تسرع لقطفها كعادتها، لم تسرع لكي تنهي دورها على خشبة المسرح بل أخذت أناملها تداعب كل تلك الزهور دون التسبب في أي أذى لها.

بينما كانت هي تحترق بنار الفراق كان هو يعمل ليجمع المال ثم يعود لينفذ خطته، أعمى الحقد بصيرته وأصبح طيفه يرافقه أينما ذهب، ذات يوم خرجت نسرين لتجلس في الحقل كعادتها شعرت بيد تربت على كتفها، شعرت بأن نبض قلبها يتسارع وقفت بخطوات متثاقلة والتفت فوجدت شابا أسمرا طويل القامة بلحية خفيفة وعيون عسلية يرتدي بذلة رسمية سوداء وحذاء أسود قاتم، ارتمت في حضنه من الوهلة الأولى إنه بلال كيف لي أن أنساك وأنت جزء مني؟ عاد بلال بعد طول انتظار وقد أصبح ثريًا وذو مكانة مرموقة ونفوذ داخل

وخارج البلاد، لم يتغير قط بل ازداد جمالاً، كان الصمت سيد الموقف لدقائق متواصلة، شعرت نسرين أن الزمن قد توقف وأن القدر أخيرًا كتب لها شيئا جميلاً.

بعد لقاء دام لأكثر من ساعة أطلع بلال نسرين عن أسباب تأخره، أخبرها أنها كانت ترافقه على الدوام ولم يتخلى عن ذكراياتها قط، لكن في داخله أخبرها أن نار الانتقام لم تنطفئ وأنه لا يكن لها أي ذرة حب، عاد ليذيقها طعم الألم الذي شعر به في ذلك اليوم عندما تعرض للشتم وقلة الاحترام من والدها، أخبرها أنه سيأتي في المساء ليطلب يدها من والدها فلم تسعها الدنيا فرحًا، شعرت أنها في حضن السماء في حلم جميل تطير بين الغيوم ولا تأبى النزول، أسرعت إلى جدتها فتضاعفت فرحتها أضعافًا.

«ذلك الحب يا جدتي لقد كتب له الله أن يستمر، لم يذهب صبري وانتظاري هباءً منثورا فالحمد لله»

أعدت أصنافا متنوعة من الحلويات والعصائر وارتدت أجمل ثيابها متعطرة بأثمن العطور بانتظار حفل خطبتها، أحضر عائلته ووافقت العائلتان على عقد القران بعد أسبوع، كان يوم الزفاف يوما بهيجًا وعمت الفرحة البيت، شعرت نسرين أنها أميرة في قصرها وأن حلمها الجميل سيتحقق قريبًا، تم الزفاف وكان أجمل زفاف يقام في المقاطعة.

بعد ستة أشهر أصبحت حاملاً بأول ابن لها وتغيرت معاملة بلال لها فأصبح أشد عنفًا ويعود من العمل كالثور الهائج يفسد كل شيء أمامه، لم يعد أمر نسرين يروق له، لا اهتمامها ولا حديثها يهمه، كانت أحلام وردية سريعة الزوال، شعرت نسرين بالألم الشديد وخاب ظنها في بلال، ازداد الوضع حدة وأصبحت تتعرض للضرب والشتم يوميًا

وعلى أتفه الأسباب وكان الشيء الوحيد الذي يجعلها تبتسم هو الملاك الصغير الذي تحمله في جوفها.

ذات يوم عاد إلى المنزل ثملاً في حالة يرثى لها وقد تعاطى كميات كبيرة من الخمر وصرف الكثير من المال على طاولة القمار، أفصح عن كل ما بداخله، أخبرها بأنه لا يحبها وأنها مجرد دمية سخيفة بين يديه يرميها متى يشاء، وأنه لم يتزوجها حبًا فيها بل تزوجها للانتقام من ذلك المتغطرس الذي أهانه وطرده من منزله، أخبرها أن الحب وردة مسمومة وهو أصبح يحمل قلبا من حجر، الوقت كان كفيلاً بأن يغير كل ذلك الحب إلى كره شديد وأنه سيجعل منها كائنا بلا روح وهي من ستدفع ثمن غباء والدها.

توالت الأيام وأنجبت طفلين توأمين يمتلكان جمالا ربانيا واعتنت بهما كثيرًا وأصبحا سبب سعادتها، كانت سجينة بلال لا تخرج من البيت وإن خرجت تنال ضربًا مبرحًا إلى أن يزرق جسدها ولا تقوى على الحركة، علمتها السنوات أن تخفي حزنها بكل براعة خلف ابتسامة جافة، لم تشأ أن يكره طفليها والدهما ويحقدا عليه لذلك كانت ترسم لهما لوحة جميلة عن والدهما وهي تبكي في صمت.

ذات يوم قررت المغادرة لتعيش بسلام مع طفليها، فكرت في العودة لمنزل والدها لكنه سيرفضها وهي أم لطفلين، قررت المغادرة إلى إحدى القرى النائية لتعيش آخر أيام حياتها مع أطفالها في هدوء وسلام، كان بلال يكره ابنيه كرها شديدا لأنهما من نسرين، بينما كانت هي تحبهما حبًا جمًا لأنهما ثمرة حبهما، حل الظلام فجمعت الأم أغراض طفليها ولم تأخذ شيئا من أطقم الذهب والأواني الفضية ولا الأموال الطائلة، أخذت فقط صورة تذكارية وتركت كل شيء وراء

ظهرها، استأجرت بيتًا هناك وسهرت على تربية أبنائها وعلى أن تجعل منهما طفلين متعلمين، واستمر بلال في البحث عنها ليعيدها إلى منزل التعذيب ويستمر في إيذائها، كانت على تواصل مع جدتها وقد أخبرتها أنه قد خسر كل أمواله على الخمر والسهر مع رفقاء السوء، شعرت بالحزن عليه ففي النهاية هي أم وهو أب ابنيها والأم بطبعها تحمل الحنان والدفء.

مرت الأيام واشتد عود طفليها وأصبحا في السنوات الأخيرة من الثانوية، كانت سعيدة جدًا بكل إنجازاتهما وكانت تشجعهما دائمًا على الاستمرار، ذات يوم وصلتها رسالة من جدتها تعزيها فيها في زوجها، وافته المنية وهو يعمل في المنجم وقد شُيع إلى مثواه الأخير في الأسبوع الماضي، بكت حتى تورمت عيناها من البكاء وشعرت بالحزن يشق صدرها، نامت وكانت نومتها الأخيرة، حلق بها ملك الموت بعيدًا إلى السماء، غادرت الحياة وهي تحمل تلك الرسالة المشؤومة، عاد ابنيها في المساء ليريا أن أمهما أصبحت جثة هامدة، انتقلت إلى رحمة ربها وقد حزن الطفلان حزنا شديدًا، أمطرت السماء ذلك اليوم معلنة حزنها وألمها ولم تغرد العصافير في ذلك اليوم معلنة عن الحداد وذبلت زهور الأقحوان معلنة عن حزن الأيام القادمة.

بعد مدة متوسطة المدى واصل الطفلان طريقهما وظلا يترددان في كل مساء ليطلعا أمهما على كل جديد وهكذا توالت الأيام وشيد الأبناء بعد سنوات أكبر شركة لإنتاج الملابس مطلقين عليها اسم نسرين تخليدًا لذكرى أمهما.

جبر من الله

لم تمطر منذ مدة وقد أثقلت الهموم قلبي والمشاكل تتساقط فوق رأسي كالأمطار، وأنا أختبىء تحت مظلة القدر لكن لا أعلم السبب، ربما في انتظار أن يأتي المنقذ أو أن أنهار تحت ضربات الدهر المتواصلة، لا أعلم فأنا شبه مقدمة على المجهول...

درست طول سنة كاملة لأتقدم للأكاديمية التي حلمت بها منذ نعومة أظافري، جاهدت وكافحت من أجل هذا الطموح الذي سكن كياني وبقي التوفيق من عند الله سبحانه و تعالى، كنت أثق بقدرتي على النجاح ولم ألتمس أي عذر أثناء دراستي للتوقف أو الشعور بعدم الاكتفاء لأنني أسعى إلى التقدم والتطوير من نفسي دائما، لكن ماذا حدث يوم الإعلان عن النتائج؟ لم أوفق في الحصول على المعدل الموزون أي أن نقاطي لم تكن كافية لألتحق بالأكاديمية التي حلمت بها كثيرا لسوء حظي كانت حلما كالسراب، وصلت إلى البئر ولم أشرب، أرجح أن قدري لم يكتب لي شيئا جميلا في حياتي ولن أصل مهما حاولت ومهما تعبت سيكون الفشل حليفي، عشش الحزن في صندوق قلبي من جديد.

بعد فترة ليست بقصيرة تجاوزت الصدمة التي كنت تحت تأثيرها لأنها شديدة القوة وأعادتني إلى واقعيتي، تراكم حطام اليأس في قلبي واجتمع حوله مثل الزجاج المطحون، تقدمت إلى أكاديمية أخرى تلبية لطلب أمي التي أصرت على أن هذه ليست نهاية الطريق وعليّ الوقوف من جديد، بدأت أزاول الدراسة في الأكاديمية لم تكن سيئة كما توقعت بل كانت أفضل بكثير، تعلمت فيها الكثير من الأشياء الجديدة والعلوم التي كنت أجهلها ولا أفقه فيها شيئا وكان هذا سببا

في أن أكتشف ذاتي وأن أطور من مهاراتي وأصقل مواهبي، أدركت بعد مدة من التحاقي بهذه الأكاديمية أنه «عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، فلا داعي للخوف والقلق ما دام الله هو الذي يدبر كل أمورنا، أدركت أن الأشياء التي يختارها الله لنا فيها الخير والبركة وما علينا إلا أن نتوكل عليه ونحسن الظن به وكان لي هذا أعظم جبر من الله سبحانه وتعالى، فإذا حصل شيء أريده أفرح كثيرا وإذا لم يحصل أفرح أضعافا لأن الاختيار الأول كان اختياري والاختيار الثاني كان اختيار خالقي.

اليوم تصدر اسمي قائمة خريجي الأكاديمية ولي كل التقدير والشكر من عائلتي وزملائي في الميدان وكذا كل من حولي، إذا أردت أن تحقق أحلامك كن على يقين بأن ما يختاره الله لك هو الأفضل، اسعَ دائما وراء أهدافك ولا تماطل في تحقيقها، لا تخف من العثرات أمامك فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

دوامة الافتراضات

تجذبني بعنف.. كان ملاذي الأخير وقد أفلته من قبضة يدي رغم كل محاولاتي لأتمسك به بكل جوارحي.. صرخات تدق طبول أذني.. الليل أصبح أشد قسوة.. ظلام الليل يواصل رحلته حتى في وجود الشمس معلنا عن اختراقه لقوانين البشرية.. عشش الحزن في قلبي فلم يشأ أن يتركني وحيدا وسط ذكريات أشبه بطعنات متتالية لسكين حاد.. سرعان ما حل الليل ووجب ارتداء معطف الاشتيقاق خوفا من عواصف اليأس التي تأتي دون سابق إنذار.. أمتطي فرسي متأهبا إلى عالمي المطاطي.. أحلام أحلاما وردية.. فريدة من نوعها فأرتطم بطيف الأمنيات الذي يمسح على شعري ثم يختفي بمجرد أن أحاول لمسه.. ثم أرى الفرح وهو يمسك يد والدي ثم يغادران معا دون عودة..

صرخت وصرخت دون جدوى فمن غطته أكوام من التراب لن يعود حتى لو صرخ العالم بأسره.

الفهرس

الإهداء.. ٥
مقدمة.. ٧
لحظات من الماضي ٩
هناك أمل..................................... ١٣
فقدت بصري.................................... ١٧
لم تكن النهاية ١٩
إحدى محطات الحياة............................ ٢٢
ألم الماضي ٢٧
درب الحياة ٢٩
ذات يوم...................................... ٣٦
التغيير وحب الذات ٤٠
صفحة بيضاء................................... ٤٣
شهادة رسمية ٤٦
المواقف والحياة.............................. ٥٦
الغريب....................................... ٥٨
ألكسندر...................................... ٦٣
أمل اللقاء ٦٨
أرجوحة ٦٩

فراشة صباحية ٧٠
موانئ الأمل ٧١
سكة الحياة ٧٢
القاتلة المأجورة ٧٣
سراب ٧٤
معاطف الأمل ٧٥
حطام الغربة ٧٦
رياح اليأس ٧٧
حب تمحوه الفوارق ٧٨
جبر من الله ٨٥
دوامة الافتراضات ٨٧